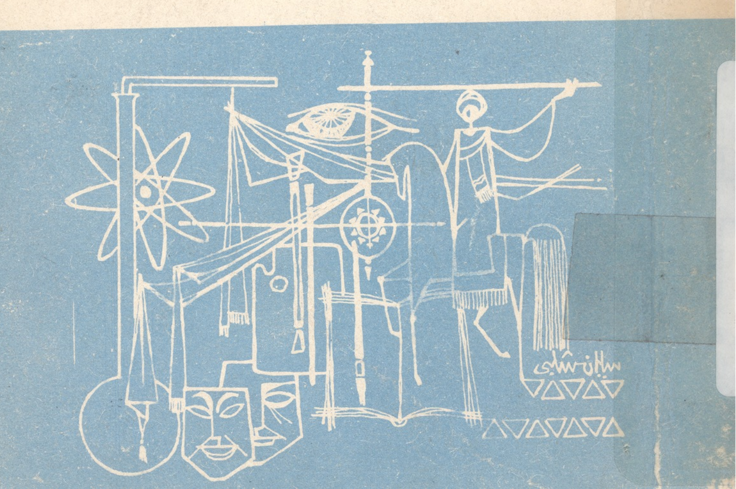
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المكتبة الثقافية
العدد ٢٥٦

قضية الفلاح في القصة المصرية

بقلم : حسن محسب



المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)
العدد ٢٥٦

قضية الفلاح في القصة المصرية

بقلم : حسن محسب

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١ م

اهـداء

الى أبى ..

.... حسن محبيب

تمهيد

ان البحث عن قضـــــية الفلاح المصرى وتتبعها فى القصة المصرية .. يضعنا أمام حقيقة تقول: ان أول‌محاولة جادة لتصوير الفلاح ببؤسه وشقائه ، لم تجد طريقهـــا الى الأدب القصصى الا من خلال الكتابات المبكرة للشـــاعر الثائر عبد الله النديم ، عندما صور فى أقاصيصـــــــه الاجتماعية عام ١٨٨١ ، استغلال الخديوى ، وأصدقائه من الاجانب للفلاحين .. وحيث انه لم يسبق محاولة النديم هذه ، غير كتاب الشيخ يوسف الشربينى «هزالقحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف»الذى يهزأ بالفلاحين فى العصر المملوكى ، فاننا نستطيع أن نقول : ان أغلب القصـــــص المصرية التى عالجت قضية الفلاح ، قد خرجت من لوحـات النديم القصصية ، وخاصة تلك الاقاصيص التى سنلمس فيها المعالجة الواعية لقضية الفلاح ، والتى يغلب عليهـــا الطابع الاصلاحى .

لكن أغلب الدارسين تعارفوا على أن البداية الحقيقية لقضية الفلاح فى القصة ، كانت عام ١٩١٢ ، حين ظهرت

قصة « زينب » للدكتور هيكل ، وذلك على أساس أن هذه .. هى البـداية الاولى للرواية المصرية بشـــكلها الأقرب الى الكمال الفنى .

وعلى كل فليستهـــذه هى المشكلة الآن ..فسواء كانت لوحات النديم القصصية ، أم قصة زينب ، هى بداية اقتراب الادباء من قضية الفلاح ، فذلك أمر ستفصـــل فيه القضية ذاتها .

أما السؤال الذى يفرض نفسه ، منذ البداية ، فهو :

ـ متى بدأت مأساة الفلاح على أرضه ؟!

ذلك سؤال ، أعتقد أن الاجابة عليه ستوضح لنا أبعاد قضيتنا ، قبل أن يعبر عنها كتاب القصة .

والواقع أن المكتبة العربية لا تخلو من الدراســات القيمة فى هذا الصدد .. نذكر منها على سبيل المثـــال لا الحصر : كتاب « الفلاحون » للدكتور الأب هنرى عيروط و « الاراضى والمجتمع » للدكتور محمود يوسف الشواربى ودراسة الاستاذ ابراهيمعامر عن «مشكلة الارض الزراعية» ودراسة الاستاذ محمد عبد الغنى حسن عن « الفلاح فى الادب العربى » التى صدرت فى سلسلة المكتبة الثقافية ـ العدد ١٢٨ .

وكل هذه الدراسات ، تجمع على أن الفلاح المصرى قد حرم أرضه التى انتزعها من الصحراء على جانبى وادى

النيل مدة أربعين قرنا قبل الميلاد وثمانية عشر قرنا بعده .. حيث كانت الارض ملكا خالصا لملوك مصر وسلاطينها .

ويزيد الامر ايضاحا ، كاتب مصرى هو الدكتور يوسف نحاس الذى نال الدكتوراه سنة ١٩٠١ ،من جامعة باريس عن دراسته المبكرة الرائدة ، « الفلاح ــ حالته الاقتصادية والاجتماعية » ، وهى الدراسة التى ترجمها ونشرها المرحوم خليل مطران عام ١٩٢٦ .

ففى هذا الكتاب ، نقف على حقيقة المأساة التى عاشها الفلاح المصرى من العهد المملوكى التركى حتى أواخر عهد الخديوى توفيق .

فقد كان يحكم مصر فى بداية تلك الفترة ، ما بين ٢٤ ــ ٢٥ ألف مملوك ، وهم لفيف من العبيد ــ كما وصفهم مسيو « لوكروا » فى كتابه « أحمد الجزار » .. حيث قال : انهم « لا يختلفون فى كونهم كلهم مماليك خارجين من سوق النخاسة .. »

أما « فولتاى » الذى زار مصر فى سنة ١٧٨٥ ، فقد قال عن المماليك انهم «غرباء .. يرتكبون أنواع المفاسد والفسوق .. »

وقرر « ليتان دى بلفون باشا » أنه « لم يعرف أبدا أن ترعا للرى أنشئت فى عهد المماليك » اذ كان كل همهم منصرفا الى الاثراء غير عابئين بالثروة العامة للبلاد ..

فأصبحت مصر على عهدهم أشـــبه باقطاعات النبـــلاء فى القرون الوسطى ٠٠ وكان الفلاح أتعس حالا من أرقـــاء الارض عند سادات النبلاء فى تلك القرون ٠٠ وما كان له أن يأمل فى حق يأتيه عن طريق القـــانون ٠٠ حيث كان خاضعا لنظام اقتصادي مستغل ، وضع بشكل هرمى ٠٠ يبدأ بالرأس الجشع ، وينتهى بالفلاح الذى يؤدى ضرائب عدة ، كانت تستغرق معظم ريع الارض ٠٠

وقد أحصى « مسيو لانكرت » سبعة عشر نوعا من الاتاوات التى كان يدفعها الفلاح ، منها على سبيل المثال قيام قومندانية الاقاليم بمصادرة كل ما يجـدونه للجيش بحجة تغذية العساكر ، ومقاضاة الفلاح منحا ورسومـــا تبتدعها قرائحهم بتفنن غريب ، ومنها ضريبة المضـــــاف و « البرانى » أى الهدية الاختيارية ! ٠٠

ولذلك فقد كان طبيعيا أن ترى فى كل مكان ، بوارا ودمارا ، وشعبا نزل الى أدنى درجات الانحطاط والجهل فى ظل فوضى فى الادارة والقضاء والمالية ٠

وحتى عند ما جاء السلطان سليم غازيا لمصر ، وهزم المماليك ، لم يتحسن حال الفلاح ٠٠ لأنه نهب البلاد وساق الحرفيين الى تركيا ، ووزع الاراضى على جنوده وأعوانـــه من ٠٠ المماليك ! ٠٠

ثم يأتى محمد على باشا ، الذى أنشأ قناطر شبين،

والقناطر الخيرية ، وغير ذلك من المنشآت الزراعية .. لكن لمن فعل ذلك ؟ انه ليس لصالح الفلاح بالقطع ، فقد كان ما يهمه هو بناء مجده الشخصى فقط ! .

والقول فى بعض كتب التاريخ بأن محمد على قد انصف الفلاح قول مغالط . فبعض الادلة التى نستخلصها من كتاب « يوسف نحاس » ، تقول : ان محمد علىّ لم يلغ نظام الالتزام الذى وضعه أسلافه المماليك ، الا ظاهريا وحسب ، اذ أنه ترك لملتزمى الوجه البحرى والجيزة كل أراضى « الاوسية » مدى حياتهم ، وأعفاهم من الضريبة ، ومنحهم دخلا سنويا ، تعويضا لهم عن الاتاوات التى كانوا يجبونها من الفلاحين .

كما أنه فى حوالى عام ١٨١٦ أمر بانشاء فروع النيل وتقوية جسوره ، وقد نفذ ذلك بطريقة « السخرة السهلة الاجبارية » .

واذا كان يوسف نحاس قد اختار هذا التعبير المخفف مراعاة لظروفه ، فاننا سنجد « مسيو هامون » فى كتابه « مصر فى عهد محمد على سنة ١٨٤٥ » قد أكد أن الفلاح فى عهد ذلك الوالى ، لم يكن أحسن حظا منه فى أيام المماليك .

فقد تميز عهده بالقوانين الجائرة ، مثل ذلك القانون الذى جعل جميع القرى متضامنة فى أداء الضرائب ، بحيث

اذا تخلفت احداها ، أجبرت جارتها على الدفع عنها ... وقد أدى هذا الى نشوب الضغائن بين القرى ، كما أدى الى انهيار اجتماعي في الريف .

●

أما في عهد خلفاء محمد على ، فقد ازداد الحال سوءا. فالخديوى عباس أعاد الفلاح الى مظالم أشد نكاية من مظالم المماليك ، ليرضى الباب العالى بالمزيد من الاموال والهدايا .

وفي عهد الخديوى سعيد ، نجد أنه بدأ بالغاء احتكار الاراضى ، الا أنه قسمها على مشايخ البلاد ورؤساء العشائر .

والخديوى اسماعيل ، ألغى السخرة التى كان الفلاح يتأذى منها ، لمجرد أنه كان يخجل منها أمام زملائه من ملوك أوربا ، ولأنه أيضا كان يناور شركة حفر قناة السويس للحصول على المزيد من الامتيازات ، لكنه ما لبث أن تراجع وألغى قراره بالغاء السخرة !

بل ان الخديوى اسماعيل ، لجأ الى المرابين ، يأخذ منهم قيمة الضرائب المستحقة على الفلاحين ، ثم يفوضهم هم فى جمع هذه الضرائب بكل الوسائل ومنها الاكراه البدنى . هذا الى جانب انه أسلم مصر بفلاحيها الى الاجانب على حد تعبير المسيو « هنس ريزنر » فى كتابه أيام الاحتلال والمسألة المصرية » .

أما الخديوى توفيق ، فقد بدأ عهده فى يوم ٢٦ من يونية عام ١٨٧٩ بقرار يلغى « الكرباج » رسميا ، الا انه دعم امتيازات الضباط الاتراك ، أو الجركس ، وترك الحبل على غاربه للامتيازات المالية الاجنبية ، تستنزف خيرات البلاد .

وهنا يسمع الفلاح لأول مرة ، فى تاريخه الطويل، بأسماء ثلاثة من الضباط هم : عرابى – وعلى فهمى – وعبد العـال حلمى ، الذين أعلنوا ثورتهم المعروفة باسم الشعب المصرى . لكنهم فشلوا ، بالخيانة والغدر ، فى تحقيق أحلام الشعب فى الحق والحرية .

●

ثم تستمر مأساة الفلاح فى مصر فى ظل الحكومـات المتتابعة ، حتى تسقط أسرة محمد على نهائيـا بطرد الملك السابق « فاروق » من مصر ، واعلان الجمهورية ، وذلك بقيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، التى واجهت مشـكلة الارض والفلاح بقانونى الاصلاح الزراعى فى سنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٦١ . ويملك الفلاح أرضه لأول مرة .

●

هذه اذن هى قضية الفلاح فى العصر الحديث : بدأت فى أبشع صورها فى عهد المماليك ، وبلغت ذروتها فى ظل حكومات العهد الماضى .

لكن ..

متى .. وكيف .. هزت قضية الفلاح وجدان كتاب القصة المصرية ؟

هذا هو السؤال الذى أحاول الاجابة عليه فى الفصول التالية ، واضعا فى اعتبارى ـ قدر الامكان الظروف التى كتب فى ظلها الادباء عن الفلاح .. ذلك ما أريد أن أثبته منذ البداية ، حتى لا يقال اننى نظرت الى القضية كلها نظرة شاب انبهر بالانتصار لقضية الفلاح فى عهد الثورة .

والله ولى التوفيق ،

« المؤلف »

الفصل الأول

شيال الطين

اذا كنا نلمس اليوم ، اهتمام الأدباء بقضية الفلاح ، فان ذلك معناه أن التغيير فى الظروف الاجتماعيةوالاقتصادية والسياسية الذى حدث عقب ثورة ٢٣ يوليـــو ، قد أتاح الفرصة لنمو هذا الاهتمام وتطوره الخصب ٠

أما فى الماضى ، فقد حرم الفلاح طويلا حتى من مجرد فهم قضيته باخلاص من جانب الحكام الذين تعاقبوا - بالغزو أو التآمر أو بالوراثة - على البلاد ، وقد انعكس ذلك بكل مساوئه على طائفة الادباء ، أو « أرباب الاقلام » كما كانوا يلقبون آنذاك !

ومن هنا يمكننا أن نحدد الاتجاهات التى أثرت على رؤية الادباء لقضية الفلاح ، وسنجد أن الأمر كله ينحصر فى خمسة اتجاهات هى :

١ - السخرية من الفلاح ، والتيئيس من علاجـــه أو رقيه ، واستعلاء أهل المدينة عليه ٠ هذا الاتجاه يظهر بوضوح فى كتاب«هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف» للشيخ يوسف الشربينى ، الذى يعطينا صورة دقيقـــة لمأساة الفلاح ابان العصر المملوكى التركى أى حوالى عـام (١٠٧٥ هجرية - ١٧٥٧ ميلادية) ٠

٢ - النظرة الاصلاحية فى معالجة النقائص الاجتماعية فى الريف ٠ وقد بدأ ذلك بحواريات عبد الله النديم الأدبية

عام ١٨٨١ • وهى حواريات اصلاحية بالدرجة الأولى •

٣ ـ الاشادة بمناظر وأخلاق الريف • ومحاربة النغمة التركية والاشفاق على حال الفلاح • وهذا الاتجاه بدأ أبرز ما بدأ برواية « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل ، ثم أخذ مساره فى امتدادات نجدها فى بعض قصص محمد تيمور وعيسى عبيد ، وطاهر لا شين « سنة ١٩١٧ وما تلاها »•

٤ ـ الحث على العمل لتخليص الفلاح من شقائه ، بالتركيز على تصوير هذا الشقاء •• ونجد ذلك فى « يوميات نائب فى الأرياف » بشكل ساخر ، ثم فى « المعذبون فى الارض » لطه حسين التى صورت عام ١٩٣٩ تعاسة الفلاح وأحزانه ، وأيضا فى بعض أعمال يحيى حقى •

٥ ـ حب الفلاح لأرضه ، ودفاعه عنها ، ورسم طريق الخلاص له ، وأبرز نماذج هذا الاتجاه ، رواية « الارض » لعبد الرحمن الشرقاوى التى صدرت عام ١٩٥٤ •

وكل اتجاه من هذه الاتجاهات الخمسة ، سنجد له بدايات وارهاصات ، وأيضا سنتتبعه فى امتداداته وتفرعاته ، فى القصة المصرية •

وان كنا نريد أن نذكر ـ من البداية ـ أننا فى بحثنا عن قضية الفلاح فى القصة المصرية ، لنحدد معالمها بالسلب

والايجاب ، سنستفيد بالتطور التاريخى لفن القصة المستحدث فى أدبنا ، الا أننا لن نقف أمام « فنية » هذا الفن الا بالقدر الذى يتطلبه البحث ، لتبين أثر التطور الفنى للقصة، على كل من هذه الاتجاهات الخمسة .

●

والآن .. ماذا عن المرحلة الأولى ؟

فى الماضى كان الاديب يعبر عن الفلاح من وجهة نظر الحاكمين الذين ما اهتموا بغير ثرواتهم الخاصة، ويتمثل ذلك فى المحاولة المبكرة جدا ، وهى كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » حيث يقول مؤلفه «الشيخ يوسف الشربينى » : « .. ان ما مر على من شعر الارياف الموصوف بكثافة اللفظ .. وجرى ذكره فى بعض المجالس قصيدة « أبى شادوف » .. فالتمس منى من لا يسعنى مخالفته ولا يمكننى الا طاعته ، ان أضع عليه شرحا .. يحل ألفاظه السخيمة ، ويبين معانيه الذميمة .. »

اذن فالشيخ يوسف الشربينى ، كان مدفوعا ، ممن لا يجرؤ على عصيانهم ، للتندر على الفلاحين ، والسخرية بهم .. لكن ليس معنى ذلك انه فعل ما فعله فى كتابه هذا ، بلا أرادة أو مغلوبا ـ تماما ـ على أمره . اذ نجده يصف الفلاحين فى أكثر من موضع بصفات لا تخلو من القسوة فهو يرى أن « سوء أخلاقهم » يرجع الى « كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار » .. ويوصيك بأهل الفلاحة

قائلا : « لا تكرمهم أبدا فان اكرامهم فى عقبه الندم !٠٠ »

« لا تســـكنن الريف ان رمت العـــلا
ان المذلة فى القـــرى مـيراث »

كذلك نجده ينسب الى كل من الامام الشـــافعى والشعرانى قولهما : « لا تسكن القرى فيضـــيع علمك وجاهك » و « ساكن الريف معدوم اللذات معرض للخطر »

وكان الشاعرالشعبى « أبو شادوف » الذى أثـار ثائرة حكام ذلك الزمن « عام ١٧٥٧ ميلادية » قد عدد فى قصيدته أنواع الهموم التى منى بها ٠٠ ومنها « الوجبة » ٠٠ وهى ليست الطعام المعتاد فقط ، بل هى وقت مجىء « المشد » أو الملتزم لأخذ المال ، وهى عبء اطعـــام هذا الجيش من جيوش الظلمة أعوان السلطان الذين يجبـون الأموال لمولاهم من الفلاحين ٠ وكان المتبع آنذاك ، « أن الفلاح يربى الدجاج وقد لا يأكل منه شيئا ، ويحرم نفسه وعياله اياه خوف الضرب والحبس ، من أعوان السلطان ، ومثل الدجاج ، السمن فيبقيه لأجل هذه البلية » !! ٠

وبرغم أن وجهة نظر « أبى شادوف » فى هذه «الوجبة» واضحة كما رأينا ، فان الشيخ يوسف ، قد فسرها ضمن تفسيره الساخر الهازىء بأنها أنواع من الطعام اللذيذ ٠ حتى ان حـديثه عن ذلك قد استغرق من الكتاب « سبع صفحات » من ص ٢٢٢ الى ص ٢٢٨ ، وذكر أنواعا ٠٠ لا يعرفها « أبو شادوف » أو أى فلاح آخر بالتأكيد ! ٠٠

ولم تقف سخرية الشيخ يوسف عند حد ٠٠ فنجده فى ص ٢٢ من كتابه هذا ، يهزأ بأسماء الفلاحين وأولادهم، ويرى أنها أسماء «كريهة» ، ولكنها «تناسب ذواتهم» ٠٠ ومن ص ٢٦ الى ٣٠ يذكر حكايات ومسائل « هبالية عجيبة » ٠٠ ويذكر أيضا : « فقهاءهم الجهال ، وفقراءهم الأجلاف ، وأخوالهم الأوباش » ! ٠

يذكر المؤلف كل ذلك ، وغيره من النوادر التى تؤكد وجهة نظره ونظر الذين دفعوه الى هذه الفعلة من الطبقة الحاكمة آنذاك ، وهى وجهة نظر تقول : انه من المستحيل أن ينتقل الفلاح من هذا الطور الى « طور اللطافة»

على أننا يجب أن نضيف معلومة موجزة الى ما سبق وهى أن الشيخ يوسف الشربينى ، قد ألف كتابه هذا فى شرح قصيدة كتبها الشاعر الشعبى المجهول « أبو شادوف » ٠٠ الذى جعل منها ـ كما سلف ـ « عريضة » تحمل كل مأساة الريف والفلاح فى عصر المماليك والأتراك ٠٠ وعلى حد تعبير الاستاذ عبد الجليل حسن ـ فى مجلة الكاتب ـ كان الشاعر الشعبى المجهول « أبو شادوف » صوت الصامتين المقهورين الذى يندد بسوء الحال ٠

ولعل ذلك يفسر لنا سر انتشار هذه القصيدة الشعبية اذ راحت ترددها قرى مصر ، بل وصل الامر الى ترديدها فى القاهرة نفسها « وجرى ذكرها فى بعض المجالس »

ومن هنا ندرك مايقوله الشيخ يوسف فى مقدمته: «الشمس منى من لا يسعنى مخالفته ولا يمكننى الا طاعته أن أضع عليها شرحا ..»

اذن فقد ارتفع صوت الصامتين فى العصر المملوكى التركى ، حتى أزعج القائمين بالأمر فكلفوا أحد فقهاء العصر ، وأحد ظرفائه ، وعلما من أعلام البراعة فى سرد الحكايات وتوليف الطرائف هو الشيخ يوسف الشربينى - بأن يقوم وهو الرجل القريب من نفوس العامة بتحويل قصيدة أبى شادوف ، الصارخة بالألم الى مهزلة تضج « بالهلس والتخريف فى وصف الريف » على حد تعبيره !

وقد أنجز الشيخ يوسف مهمته على خير وجه فجعل مؤلفه « من بحر الخلاعة والمجون ، لأن السامع يلتذ بكلام الضحك والخلاعة ، وليس البلاغة والبراعة » .

الا أننا - برغم كل ذلك - نلمس شيئا من الصدق الفنى عند المؤلف ، اذ أنه يقول - فيما قال فى تبرير كتابه - ص ١٥ « وذلك أن النفوس الآن متشوقة الى شيء يسليها من الهموم ويزيل عنها وارد الغموم » .

وكما رأينا فى التاريخ ، لم تكن هناك « هموم ولا غموم » أسوأ مما كان فى تلك الفترة من التاريخ .. بالنسبة للفلاح .

ويكفى أنه قد بلغ من هوان الفلاح وتفاهة شأنه أنه لم يحسب فى طبقات أهل البلاد والأصحاب والألقاب

منهم ـ على حد تعبير محمد عبد الغنى حسن فى كتابـــه « الفلاح فى الأدب العربى » ٠

شيال الطين

فقد كان هناك ألقاب للفئات والطبقات على نحو : أرباب السيوف ـ أرباب الاقلام ـ كتاب الأموال ـ المعين والصرفى ـ مهندس العمائر ـ رئيس الأطباء ـ ورئيس الكحالين ، أى أطباء العيون ـ وهناك ألقـــاب الخـدام والصبيان « الطواشية » ٠٠ وألقاب تكرم « الخصى » ففى عهد الفاطميين مثلا ، نجد الخصى الملقب ب «صفى الدين» أو « شجاع الدين » ٠٠ الخ ٠

أما الفلاح فقد لقب ب « شيال الطين » ! ٠٠ وليس ذلك بغريب على عصر تعلقت أنظار الأدباء والشــعراء فيه بالملوك والأمراء ، وكل ذى جاه وسلطان ولم يوجه التفاته الى الفلاح الكادح الا فى بعض وقفات قليلة منثورة هنا وهناك ٠ فالمؤرخان العالميان « أدولف أرمان ، وهرمان رنكة » على سبيل المثال ، لم يذكروا الفلاح فى كتابهما القيم عن « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمــة » الا فى موضعين اثنين فقط ! وذلك فى معرض المشابهة القريبــة بين الفلاح المصرى المعاصر والفلاح المصرية القديم ، ففى رأيهما « أن الذى يجول الآن فى قرية مصرية من قرى الصعيد يستطيع أن يرى أشكالا من الناس يخيل الى المرء

أنها قد خرجت لساعتها من الرسوم والصور التى تغص بها المقابر المصرية القديمة » !

.. وكل ما حظى به « شيال الطين » بعد ذلك من اهتمام أرباب الاقلام ، ان اسمه الضئيل الشأن ، أصبح يسجل فى كشوف المتحصلات من الغلات ـ ولم يكن ذلك ـ بالطبع ـ لهدف آخر غير « حصر عدد الفلاحين لعــــدم افلاتهم من دفع الضرائب والاتاوات لرجال الحكام » !!

كانت هذه هى الظروف التى كتب فيها الشيخ يوسف مؤلفه الهزلى هذا ، ليسىء الى الفلاح برغم ما يقال أحيانا من أنه ـ ربما ـ قصد الى تصوير شقاء الفلاح ومشاكله بهدف اصلاحى .

بعد ذلك نصل الى أخريات عهد محمد على لنجد أن موجة الفتوحات الكبرى التى كانت تمتص ميزانية الدولة وترهق الفلاح ، قد انحسرت مخلفة مشاكل تراكمت على كاهل الفلاح وحده .

وفى تلك الفترة ، ولد عبد الله النديم ســــــنة ١٨٤٣ بالاسكندرية ليكبر فى ظل التناقضات الاجتماعية التى فجرت وعيه عندما بلغ مبلغ الرجال ، وجعلته ينتمى الى مدرسة الشيخ جمال الدين الافغانى وصحبه من رجال الاصلاح . ومن هنا تبدأ مرحلة الاتجاه الثانى ، أو النظرة الاصلاحية ، فى قضية الفلاح .

الفصل الثانى

النظرة الإصلاحية

نقف الآن أمام مرحلة « النظرة الاصلاحية » الى مأساة الفلاح لنجد أعمال عبد الله النديم الادبية تحتفظ لنفسها بفضل الريادة ، وذلك برغم اختلاف آراء النقـــاد حول مقالات عبد الله النديم ولوحـــاته القصصية ، فبعضـــهم يعتبرها قصصا مبتدئة ، ومنهم الناقد عباس خضر «القصة القصيرة فى مصر » وبعضهم الآخر يرى أنها صورة تشتمل على حكاية حال وليست قصصا بالمعنى الفنى المتكامل للقصة ومن هؤلاء محمد عبد الغنى حسن فى كتابه الفلاح فى الادب العربى ص ٧٧ .

وهناك رأى ثالث يمثله الاستاذان محمد عبدالوهاب صقر وفوزى شاهين فى كتابهما « عبد الله النديم » (رقم ١٤٦ من سلسلة الالف كتـــاب) ، ويريان أن « حوار » عبد الله النديم فى معالجة النقائص الاجتماعية بارع حقا وأنه كان سائرا نحو فن تمثيلى مكتمل .

ورأى رابع يمثله الدكتور ماهر حسن فهمى فى كتابه « من الادب والحياة فى المجتمع المعاصر ـ رقم ١١٠ من سلسلة المكتبة الثقافية » اذ يرى أنها « لون آخر من ألوان المقالة يتخذ الحوار أحيانا وسيلة للتعبير فيمنح مقاله حياة وخصوبة قد لا يتوافران فى السرد » .

ورأى خامس يتفق فيه كل من الدكتور على الحديدى

فى كتابه « عبد الله النديم خطيب الوطنية » ـ العدد ٩ من أعلام العرب ـ والدكتورة نفوسه زكريا سعيد فى كتابها « النديم بين الفصحى والعامية » يتفقان على أن : النديم عرف القوالب الادبية التى تعجب العامة وتؤثر فيهم وتشوقهم الى القراءة فوضع مقالاته العامية فى قالب « القصة القصيرة » حينا وفى قالب المحاورة حينا آخر .

.. والواقع أن هذه الآراء للنقاد والدارسين آراء اجتهادية .. فالقصة ، كفن له مقاييسه وقواعده الحديثة لم تعرف فى أدبنا العربى الا فى وقت متاخر وبعد مرحلة النديم بكثير ، حتى ان كتاب القصة الرواد الذين كتبوا فى العشرينات وما قبلها ، على سبيل المثال ، وهم محمود طاهر لاشين ، ود . هيكل ، وعيسى عبيد ، ومحمد تيمور .. وغيرهم كانوا فى حاجة « الى قنطرة للتحول من المقامة الى القصة القصيرة ، فمال أغلب انتاجهم المبكر الى الاقتصار على رسم لوحة عمادها وصف أنموذج شاذ من البشر يستوقف النظر ، هو فى الأعم مدعاة للتندر والدعابة » .

ذلك ما أثبته الأستاذ يحيى حقى فى كتابه « فجر القصة » وفى مقدمته لمجموعة محمود طاهر لاشين «سخرية الناى » .

واذا كان ما يقوله يحيى حقى ، يبرر ضعف المحاولات القصصية الأولى عندنا ، على ضوء تكنيك القصة الحديث ، فهو بلا شك يمكن اعتباره تبريرا أكثر انسحابا على انتاج

الكتاب الذين سبقوا رعيل الرواد ، ومهدوا لهم بدعوتهم الاصلاحية • ولا أظن أن أحدا يختلف معنا فى القول بأن المدرسة الحديثة من كتاب القصة ، عقب المقامة ـ قد تأثرت أيما تأثر بالدعوة الاصلاحية التى مكن لها النديم بمقالاته الحوارية • أو بلوحاته القصصية الاصلاحية ـ كما سنرى ذلك فى حينه •

الا أنه كان يجب الاتفاق على أن حواريات النديم ، قصص وليست مقالات ، وذلك قبل أن نطرح السؤال :

ـ كيف بدأ الاتجاه الاصـــلاحى يفرض على النديم اختيار الشكل الملائم لايصال آرائه الى عامة الناس وكيف عالج قضية الفلاح ؟

ان الجواب على ذلك يستوجب منا عودة الى ظروف العصر الذى تعقدت فيه مأساة الفلاح بشكل خاص ، لنجد أن النديم الذى ولد بحى المنشية بالاسكندرية عام ١٨٤٣ قد بلغ مبلغ الرجال ليأخذ الأدب والعلم فى حلقات جمال الدين الأفغانى ، ثم يسعى وراء رزقه فى قرى ونجوع الوجه البحرى ويعيش مع الفلاحين •• ثم يعود الى الاسكندرية فى أوائل عام ١٨٧٩ ليتخذ من أدبه سلاحا للاصـــلاح يقاوم به النفوذ الأجنبى الذى رأى آثاره المدمرة تســحق الفلاح أينما ذهب من قرية « بدواى الى قرية منية النصر » وغيرهما من قرى الوجه البحرى فى أواخر عهد اســـماعيل • وفى الاسكندرية شارك النديم فى صحيفتي «مصر» و «التجارة» اللتين أنشأهما أديب اسحق وساعد فى تحريرهما سليم

نقاش ـ وثلاثتهم من مدرسة الأفغانى ٠٠ ثم أنشأ النديم بعد ذلك مجلة « التنكيت والتبكيت » ليواصل حملته الاصلاحية على النواقص الاجتماعية متخذا من مأساة الفلاح مادة خصبة لكثير من أعماله الأدبية ٠

واذا كنا قد أطلنا فى هذه المقدمة ، فعذرنا أن قضية الفلاح فى تلك الفترة لا يمكن فصلها عن حياة النديم نفسه ٠

« ٠٠ النديم والفلاح »

ثم نصل الآن الى موقف النديم من قضية الفلاح ، فنجد أن صرخة الأستاذ جمال الدين الأفغانى كانت هى البداية الواعية فى حياة النديم والمؤثرة فى كل انتاجه التالى ـ عندما قال الأستاذ : « عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الأرض بفأسك باحثا عن رزقك ٠ لماذا لا تشق بهذا الفأس صدور ظالميك » ٠

ويتلقف الشباب المثقف من رواد مقهى « البوستة » هذه الكلمات ليفكروا فى العمل لحماية الوطن من شرور اسماعيل ، فمنهم فريق فكر فى خلعه ، وفريق دبر لقتله ٠

وترك ذلك أثره على النديم ، فقد التهبت مقالاته وحوارياته التى أخذت مادتها من حياة الفلاح ، والشرور التى تكالبت عليه من كل الجهات ٠

والنديم ـ نفسه ـ يمهد لنا طريق التعرف على

معالم المأساة التى سقط الفلاح فى ظلمتها بلا حول ولا قوة ..

فيقول ــ فى مذكراته التى أسماها : « تاريخ مصر فى هذا العصر » .

« كان الخديو غارقا فى لذاته ، سائرا وراء شهواته .. لا يرفع الا الأراذل ، ولا يقرب الا الأسافل ، ثم حمله جشعه على زيادة الطمع ، فأرسل الى الانحاء كل صخرى الفؤاد وحشى الاخلاق ، وفى الأصل ردىء المنبت سيىء التربية ، خبيث الطبع لا يرعى حرمة للانسانية ولا حقا للدين ولا ذمة للأخلاق .

أرسل «عكوش» و«عمر لطفى» و«سلطان» لاكراه الأهالى على تسليم الاطيان فاغتصبوا له تفاتيش الصعيد . ثم استعمل « حسن راسم » على الأقاليم البحرية ، ليتم الخراب وتعم الرزية ، فاستخلصوا له تفاتيش الوجه البحرى . وكان العربون السلب وبقية الثمن الضرب ، ثم أخذ فى بناء السرايات وحشوها بالمحسنات » .

كما كتب النديم فى جريدة الطائف يومى ٢٩/٤ و ٦/٥ سنة ١٨٨٢ يصف الوسائل البشعة فى تحصيل الضرائب من الفلاحين :

« كانت طرق تحصيل الضرائب تقشعر لها الابدان قوامها الاذلال والاهانة والايلام ، فاذا هبط المأمور قرية

للاشراف على تحصيل الضرائب طلب سكانها واحدا بعد واحد فمن دفع نجا من عذاب أليم ولا يناله الا بعض السياط ليشبع نهم المأمور للضرب ، ومن قصرت يداه ألقاه القواصة على الارض وقطعوا اهابه بالسياط ، فاذا نجا من الموت أودع السجن ٠٠ »

وتصل الاستهانة بالفلاح حدا لا يعقل ٠٠ فها هم أولاء جباة الضرائب يعترضون سير جنازة فى أحدالشوارع ثم يتقدم كبير القواسين ويأمر بانزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على الميت ، وصاح المشيعون : لعنة الله على الخديو فى كل كتاب ، وأخيرا دفعت الشهامة أحد المشيعين فأعطاهم الضريبة وكانت ٠٠ ستة قروش !

هكذا ٠٠ كان يعامل الفلاح ، وهكذا يستمر النديم فى عرض قضية الفلاح فى عصره ٠٠ « رأيت ألوفا من الاهالى جمعوا من كل المديريات لحفر رياح « الخطاطبة » كى يسقى مزارع الخديوى ، وكان البرنس حسين باشا مفتشا للوجه البحرى ، ومر القواص على جواده معلنا أن البرنس سيفاجئهم للتفتيش ، فهرع الملاحظون الى قطع الاغصان الغليظة من الأشجار ونزلوا بها على أجسام الفعلة العارية فلا تسمع الى الأنات والصراخ والنحيب ، ولا يظهر من هذه الأجسام الملطخة بالطين سوى مواضع السياط ، وكلما مر البرنس على مدير ورأى الانفار تقع على الصخور وتغرق

فى الوحل وتضرب على الوجوه قال للمدير « أفرين أفرين»
ـ أى ـ « برافو برافو » فمـــا انتهت الزيارة الا وعدد
الموتى قد بلغ الثلاثين بين مضروب بالسياط وغريق فى
الوحل ورأيت طفلا يبلغ من العمر ٨ أو ٩ سنوات قد
وقف على الجسر فى الطريق يتفـــرج على موكب المفتش ،
فتناوله أحد السواس من يده وألقاه فى الترعة فمـــات
لوقته ، فتبسم المفتش لذاك السائس استحســـــانا
لفعله ..

« وكان البرنس حسين هو وأبوه اسماعيل يطربهما
أنين الضحايا وتأوههم ويستعدهما منظر القتل والتعذيب».

فى هذه اللوحة الدامية ، نتعرف على وضع الفـلاح
فى عهد الخديوى اسماعيل حيث :

« كانت البلاد على سعة أطرافها كليمان أعد للمذنبين
ومجلس جزاء هيىء لأرباب الجرائم والخاطئين .. »

ونستمر مع هذه المرحلة الاصلاحية ، التى ارتفعت
فيها همسات النديم حد الصراخ منددا بالوضع السيىء
الذى حاق بالفلاحين ، لنلتقى بعدد من اللوحات التى نقلها
النديم نقلا عن الواقع المؤلم الذى عاشه الفلاح .

وأولى هذه اللوحات ، عنوانها « الفلاح والمرابى »
وهى تضع أيدينا على وسائل الاستغلال الجشع للفلاح، الذى
وجد نفسه مطالبا بسداد ديون الخديوى للمرابين والوسطاء
بالاضافة الى رجال الضرائب وغيرهم .

« الفلاح والمرابى »

« احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه فقصد أحد التجار وطلب منه المبلغ فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور أحد النبهاء :

ز ـ عاوز ميت جنيه بالفرط يا سيدى .

ت ـ فرط المائة عشرون كل سنة .

ز ـ اعمل اللى تعمله .

ت ـ شيل عشرين من المائة تبقى كام ؟

ز ـ هو أنا كاتب ؟ شوف يفضل كام .

ت ـ يبقى سبعين !

ز ـ يدوب كده !

ت ـ دلوقت صار لى مائة جنيه ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة .

ز ـ اكتب وخد الختم أهو ..

وتسلم الفلاح سبعين جنيها وعندما جاء وقت المحصول قدمه للتاجر الذى أعاد طريقته فى الحساب فاذا بالفلاح أصبح مدينا للتاجر بمئتين وعشرة ونصف جنيه ؟

ويعلق المرابى على عتاب النبيه له بقوله :

ـ « يا خبيبى الزارع خمار »

●

حتى فى أزجال النديم ، نجد أغلبها يدور حول قضية الفلاح :

أهل البنوكا والأطيــان
صاروا على الأعيان أعيــان
وابن البلد ماشي عريان
ممعاه ولا حق الدخـــان
شرم برم حالى غلبـــان !

« العدل والمساواة »

وهكذا يمكن لنا أن نستمر وقتا طويلا فى قراءة آثار النديم التى تعالج مشاكل الفلاح المصرى ، وليس هذا غريبا ، فكما أسلفنا ، لا نستطيع أن نفصل بسهولة بين قضية الفلاح وبين حياة النديم ذاته .

الا أننا نتساءل عن العلاج الذى يراه النديم لمأساة الفلاح ؟ ..

انه بالاضافة الى الحلول التى أوحى بها فى ثنايا لوحاته القصصية وأزجاله ومقالاته الكثيرة يصرح لنا فى حوار بينه وبين أحد تلاميذه بالحل الذى يرتئيه ناجحــا لكل مشاكل البلد .. ففى هذا الحوار يركز على العــدل والمساواة ، وهو ما نعبر عنه اليوم بالاشتراكية ، بل انه فى هذا الحوار يطالب بأن يدخل النبهاء الاذكياء من أبناء

الشعب مجلس النواب ، ليكون الرأى شورى ٠٠ وحتى لا يطغى الاتراك والأعيـان ويشرعوا من القوانين ما يحفظ لهم حقوقهم الطبقية التى تزيد من أعباء الفـلاح وتضاعف من أعمال السخرة المسيطرة على حياته ٠

فيقول : « لا يخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبداد والاستعباد لهذا يميل الى استخدام الفقراء بلا مقـابل ، وضرب الفقراء من غير أن يعارض أو يحاكم ، هذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب ، على أن الغنى اذا كان من حكام البلاد فانه أدرك الثروة بنهب الفلاح وظلمه ٠٠ » الى أن يقول : « ومن كانت هذه أفعاله لا يميل للمساواة ولا يعترف للفقير بحق الوجود ٠٠ » ووجود أمثال هؤلاء فى مجالس النواب « علة لزيادة هلاك الشعب ٠٠ فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم ، ويحبسـون الثروات لأنفسهم ٠٠ الخ ٠٠ »

●

اننا ـ برغم ذلك ـ لم نطل فى الوقوف أمام النديم فهو ـ بحق ـ لم يزل من أخلص الذين احتضنوا قضـية الفلاح بعقولهم وقلوبهم ، ونظروا اليهـا من خلال الموقف الاجتماعى الواضح ٠٠ وما أندر ذلك فيمن عالجوا قضية الفلاح ٠٠ كما سنرى ٠

***

الفصل الثالث

مناظر وأخلاق ريفية

وعندما نصل الى عام ١٩١٢ ، وهو العـــام الذى صدرت فيه الطبعة الاولى من قصة « زينب » للدكتـــور هيكل ·· سنجد أن الفلاح ·· صاحب الملكية الصغيرة أو العامل الزراعى ، ما زال ذلك المخلوق المقضى عليـــه بأن يستغل وبأن يرهق لمصلحة غيره ·· فان الفكرة التى مدارها استغلال الفلاح فى كل حالاته واستنزاف موارده جميعا ما زالت الهدف الوحيد للحكومات المتتالية ·

ومجمل القول ، أن الفلاح ظل كما هو ، ســـاكنا تلك الاكواخ الحقيرة التى لا ينفذ اليها هواء ولا شمس ، بينما يحصد الموت أطفــاله ، ويطبق عليه الجهل من كل الجهات ·· فضلا عن ضياع كل حقوقه الانسانية ·

لكن قصة « زينب » ، جاءت برغم كل ذلك ، لتؤكد أن كاتبها قد نظر الى الريف تلك النظرة التى تقول : « ان مناظر الريف وعادات أهله وأخلاقهم جديرة بالتســـجيل والاعجاب ·· » على حد تعبير د · على الراعى (ص ٣٦ ـ « دراسات فى الرواية المصرية » ·

لكن أى اعجاب ذلك الذى سجل به هيكل رأيه فى « عادات » و « أخلاق » و « مناظر » الريف المصرى ؟

صحيح أن زينب كانت أول قصة مصرية بالمعـــنى الفنى ، لأنها تخلصت من أسلوب المقامة ، الذى كتب به

المويلحى « حديث عيسى بن هشام » كما انها اعتمدت على « الحدوتة » ، بدلا من الاكتفاء برسم الاسكتشاتالاجتماعية وصحيح أيضا أنها أول رواية مصرية تقترب من قضـية الفلاح ، بل ان مؤلفها اختار لنفسه اسم « مصرى فلاح » ليضعه على غلافها ، ولكن هذه الرواية تضعنا أمام مواجهة حساسة الى حد كبير ․․ فهيكل يوم كتبها كان مغتربـا للدراسة بأوربا ، كما أنه عبر عن رأيه فى الفلاح منخلال موقعه كأحد ملاك الأرض ․․ ومن هنا وجب الانتباه الى آرائه فى قضية الفلاح ․

●

ففى هذه القصة ، نجد قصة حب رومانسى ، تجمع بين زينب ، وبين ابراهيم ․․ وسنجد أيضا أن صراعـا عاطفيا يعذب زينب لأنها من جهة تحب « ابراهيم » ، ومن جهة أخرى تميل الى « حامد » ابن صاحب « المزرعـــة » ․․ ثم زواجها من « حسن » رغما عنها ، حيث تموت فى النهاية ميتة « غادة الكاميليا » ․

تلك هى أبرز الخطوط فى « زينب » التى يرىالبعض أنها كانت أول محاولة لامتداد آفاق الثقافة والفن لتحتوى قطاع الريف ، وأول محاولة ـ كذلك ـ للتعبير عنأولئك الذين يعيشون فى قاع المجتمع ․․ الخ ․

لكن ․․

بعيدا عن هذه الأحكام المسبقة والمتداولة كيفمـــا

اتفق ، نتوقف أمام القصة ذاتها ٠٠ لنستقرىء منها موقف د ٠ محمد حسين هيكل من قضية الفلاح ٠

●

فى الصفحات الأولى من زينب ، نجد لوحة تصور عمال الزراعة ــ سواء الاجراء أو « التملية » ــ وقد أحاطوا بمكتب « باشكاتب » الزراعة ، وقد « أمسك التملية منهم دفاترهم بيدهم ، وانحنى الآخرون يسألون عن عدد أيام شغلهم » ــ ص ١٥ ــ الطبعة الثالثة ــ دار الهلال ٠

وفى هذه اللوحة خطأ ما كان ليقع فيه لو أنه كان ــ كما وصف نفسه ــ « مصرى فلاح » على غلاف قصته وفى مقدمتها ٠ فالتملية ــ وهم العمـــال الدائمون فى « العزب والوسايا » ٠٠ لا يمسكون « بدفاترهم » ٠٠٠ اطلاقا ٠٠ فهم الى جانب جهلهم بالدفاتر وما يكتب فيها يحصلون على أجرهم ــ حسب الاتفاق ــ وعادة ما يكون : ٣ قراريط أذرة ، وكذا كيلة قمح ٠٠ الخ ٠٠ فى المواسم الزراعية ٠ ومن حقهم بالطبع الحصول على سلفة ماليـــة تخصم من أنصبتهم الضئيلة من المحاصيل ٠٠ ذلك كله يحدث فى ريفنا ربما من آلاف السنين ٠٠ دون الحاجة الى امساكهم بدفاترهم ! ٠

الا أننا عقب هذه اللوحة ، نلتقى بحكايات صورها هيكل بلمسة لا تخلو من الذكاء ، فأظهرت قســوة كاتب الزراعة فى معاملته للعمال ، فها هو ذا عطية أبو فرج قد

أمضى أكثر أيام أسبوعه مريضا فخرج منه بستة قروش وهو يعول امرأة وبنتا ، ويساعد أماً له دقتها الايام .

« وبالرغم من الخلق المرقوع الذى يلبسه هو وبقية أفراد عائلته ، فلم يكن من سبيل لغير هذا ما دام الاجر على ما هو عليه من ضعف .. » (ص ١٦) .

هذه اللوحة المعبرة بصدق عن حال الفلاح ، نفتقدها بعد ذلك ، فان أحدا من أمثال « أبو فرج » هذا .. لم يرد ذكره .. كما أن أمثاله لم يتأثروا أو يؤثروا فى أحداث الرواية .. التى اهتمت بمناظر وأخلاق الريف .. فقط !

●

واذا حاولنا حصر نظرة هيكل الى الفلاح ، فسنجد أن الفلاحين عنده « يستعيضون بالنجوم اللامعة ، والقمر الساهر ، عن دثرهم .. وفى جوف الظلمة الصامت الامين يرسلون بآمالهم وأمانيهم ، بينما يحمل الهواء أغانيهم على جناحه ويملأ بها ما بين السموات والارض . » (ص ١٧)

ماذا ؟ .. ألا يحس الفلاح ، عند هيكل ، بآلامه، وشقاء حياته ؟ .. يجيبنا الكاتب : « ولكنهم ما كانوا ليحسوا بذلك أو ليألموا له ، وقد تعودوه كما تعـــوده آباؤهم من قبلهم » .

وكأنما يشعر هيكل ـ بأننا لم نقتنع بقوله هذا فيمضى مفسرا له : « تعودوه من يوم مولدهم فانتقل اليهم بالوراثة

وبالبسط ، تعودوا ذلك الرق الدائم ، ينحنون للسلطان من غير « شكوى » ومن غير أن يدخل ذلك الى نفوسهم « قلقا » !

.. ويعود هيكل الى اجبارنا على الوقوف أمامه بحذر وانتباه شديدين وهو يتحدث عن الملاك وأصحاب الارض من الاقطاعيين .. « ان المالك ـ كم فكر فى أن يبيع قطنه بأغلى ثمن ، وأن يؤجر أرضه بأرفع أجر .. وفى الوقت عينه يستغل الفـــلاح نظير قــوته الحقير .. (لا تخدعنا هذه النظرة الاصلاحية فسرعان ما يقول هيكل : وكأنه ـ المالك ـ ما علم أن هذا المجموع العامل يكون أكثر نفعا كلما زادت أمامه أسباب المعيشة وتوافرت عنده دواعى الطمع فى أن يحيا حياة انسانية » .. ص ٢٠ و ص ٢١ .

هذا القول يمكن اعتباره دعوة اصلاحية تقدمية الى حد كبير .. لكنه فى موضعه ومكانه من القصـــة ومن أحداثها ، يعد تحريضا صريحا للملاك للتفنن فى استغلال العامل الزراعى والفلاح المعدم .. لأن « هيكل » ، لم يقدم لنا طوال أحداث قصته الطويلة شخصية ، أو حدثا .. يبشر بحل ثورى لمأساة الفـــلاح .. بل انه لم يشر الى حرمان الفلاح من أرضه ولو بكلمة واحدة . بل انـــه (ص ٥٩) لا يثير فينا الحماس لقضية الفلاح حين يقول : « ولكنه ككل اخوانه من العمال على ظهر البسيطة » .. ! وبمعنى آخر : لماذا نحزن من أجل عاملنا الزراعى !

واذنفأى حديث اصلاحى فى ظاهره ، يبطن ــ عند هيكل ــ ويحتوى كل وجهة نظر المالك صاحب « المزرعة » الذى « يعيش ــ هو الآخر ــ كما عاش آباؤه ، يحافظ على القديم ولا يفكر فى أن يغير من عادات سلفه شيئا ، واذا حدثك عن الماضى حدثك عنه باحترام وتبجيل ، آسفا أن انتقل أجر النفر الشغال من قرش الى قرشين » ..

هكذا هو هيكل ، فى حقيقة دعواه ، وفى صميم نظرته الى الفلاح ، ولذلك يمكن القول بانه ما اختار الريف ميدانا فسيحا لقصته وما اختار الفلاحين أبطالا لها الا لكى يصور لنا حنينه الى الطبيعة الخلابة كبديل لمناظر سويسرا الساحرة ، حيث كتب هناك فصولا من قصته هذه ... اذ أنه لم يقدم لنا شخصية من الفلاحين ، ولم يتحمس لها حماسه لشخصية « حامد » ابن « السيد محمود » مالك المزرعة ، فمع أنه « كثير الدلال كثير البكاء ، موضع الاعزاز من جميع من فى الدار » . ثم وهو فى الخامسة كنت تراه محمولا على أكتاف النساء أو على أعناق الرجال . فقد جعل منه ــ كبيرا ــ شابا ملأ خيال البنات ، عابرا أعنـــاق الرجال الى نسائهم وبناتهم بلا حسيب أو رقيب ، لمجرد أنه ابن السيد صاحب المزرعة . وقد انحاز هيكل لنفسه ــ بانحيازه الى حامد ــ وجعل منه محور الرواية ، بأحداثها ولوحاتها الرومانسية الكثيرة ، وجعل من الفلاحين مجرد « كومبارس » يدورون فى فلكه ويحلمون بحبه ورضاء !

« تحيز طبقى »

أقول : ان هيكل جعل من « حامد » رجلا ضد التقاليد المتعارف عليها فى القرية ، هذا ـ فى حد ذاته ـ حسن ، بشرط أن يكون هناك « موقف » من الفلاحين ، لكن بانعدام هذا الموقف أصبح الامر كله « سخرية » أشد نكاية من سخرية الشيخ يوسف الشربينى فى شرحه لقصيدة أبى شادوف ـ كما تقدم ـ اذ نجده فى ص ٣٤ يقول : « وارتقى حامد السلم بعد أن اخترق هذه الجموع ، جموع العمال والفلاحين ـ التى لم تترك من المكان شبر فضاء ، فلما كان عند الدرابزين فوق السطح الممتد عليه رواق الليل الحالك الظلمة ، وجد زينب جالسة وحدها فأخذ مكانه جانبها ونبهها بحركة لطيفة لوجوده » .

فاذا عرفنا أن هذا « المشهد » العاطفى كان فى حفل عرس بالقرية ، وحامد يبحث عن « فتاته » زينب ، حتى وجدها على السطح ، حيث كان حديث وعناق « كذا .. عينى عينك » ـ أدركنا أن هذا الافتعال جاء نتيجة سببين لا ثالث لهما ، عدم توفر الخبرة الدقيقة بتقاليد الفلاحين ، والتحيز لابن السيد صاحب العزبة . ولقد تمادى «هيكل» فى تمجيده لحامد ،والاساءة الى الفلاحين أخلاقيا واجتماعيا، عندما جعل « ابراهيم » ، حبيب « زينب » ، والمنافس القوى لحامد ـ جعل منه « وبما هو معروف عنه من الجد ، مقربا الى السيد محمود واخوته وأبنائه ، وجعله عندهم

محبوبا يرعونه ويقدمونه على غيره ، ونال بذلك ثقة المالك فلم يك عمل الا أعطاه قياده وترك له فيه من الحرية مايجعله أشد احتفاظا به ٠ » « وقد أسلم له المالك مفتاحه » ص ٤٣ ٠ ثم جعله « هيكل » يزداد اخلاصا فى خدمة المالك ـ وجعل منه يده القوية الحريصة على مضاعفة ثروة « السيد » ٠٠ على حساب المزيد من العنت الواقع على ظهور الفلاحين ! ٠

كذلك ، جعل « زينب » التى تحب ابراهيم « ذلك الحب التائه بين الناس ٠٠ » وتريد أن « تريح معه روحها الثائرة ٠٠ جعلها ـ برغم ذلك ـ تجد من السعادة فى كلام حامد ومحادثاته ما يدخل فى قلبها الهناء الجم » ٠ ص ٤٣ و ٤٤ ٠

واستكمالا للصورة التى رسمها هيكل للريف والفلاحين٠ نجده فى ص ٤٦ يصف اجتماع الأنفار للغداء ، وهو طعام لا يزيد عن كونه خبزا جافا وبصلا وبعض المش ٠٠ بقوله: ٠٠ « وقطعا للوقت ، جعلوا يحضرون طعامهم ويضمونه كعادتهم الى جانب بعضه ليتناولوه معا محققين فى ذلك أكمل معانى الاشتراكية » ! ٠٠

ولا شك أن هيكل ، وهو فى أوربا يكتب قصته هذه على سفوح جبال سويسرا ـ كان يعرف أن أكمل معانى الاشتراكية ليست فى أن تجمع الأرغفة الجافة والبصل والمش ليتناولها الجائعون معا ٠٠ وانما الاشتراكية فى

أبسط معانيها ، هى ·· أن نمكن هؤلاء الجائعين من طعام أكثر دسامه ووفرة باعطائهم حقوقهم ، بقـدر عملهم فى الأرض ··

وأعتقد أن هيكل كان يعرف ذلك ، ولكنه لم يصرح به ، ولم يثبته فى روايته ، كما أنه لم يشر الى أن قيام نقابة للعمال الزراعيين ـ مثلا ـ يعد حلا عمليا لمأســـاة هؤلاء الأنفار ·· ان شيئا من هذا لم يحدث طوال فصول الرواية ولم يرد ، ولو مجرد الحلم به ، ذلك لأن هيكل كان يعلم أن كل هذا معناه الدعوة للعدل الاجتماعى · وأكاد أقول انه لأجل ذلك ، أهمل الاشارة اليه !

ان زينب قصة مصرية ، برغم ذلك كله ، وبرغم أن كاتبها قد ملأها بأشياء غير مألوفة بالمرة فى ريفنا ·· مثل تسميته للعزبة ، بالمزرعة ·· ومثل اختياره « الســـل » مرضا لزينب وحلا لمشكلتها ، برغم قوله فى ص ٢٥٦ : « فى هاته القرى المصرية حيث الهـــواء الطلق والشمس الدافئة والحياة الهادئة (!!) ·· قل أن يتصور انسان مرضا كالسل » ! ··

لكن الأمر المؤكد الآن ، أن المناقشة الموضوعيةلهذه الرواية ، ستجعلنا نقرر أننا لم نجد بها دفاعا قويا أو مهموسا عن قضية الفلاح · وكم سيبدو قولنا هذا غاية فى الغرابة عند كثيرين !

الفصل الرابع

تعاطف الغرباء

بعد خمس سنوات من صدور « زينب » ، وبالتحديد فى عـام ١٩١٧ ، تنشر جـريدة « السفور » قصة « فى القطار » لأديب أتفق على أنه رائد القصة القصيرة فى مصر ، وهو « محمد تيمور » • وفى هذه « القصة » كما فى قصص أخرى لغيره من أدباء « المدرســة الحديثة » نلمس آثار قضية الفلاح بشكل أو بآخر •

ولقد كان ظهور الفلاح فى قصص أصحاب « المدرسة الحديثة » مرتبطا بظروف جديدة طرأت على المجتمع المصرى فى تلك الأيام التى شهدت ارهاصات ثورة ١٩١٩ •

فقد شهدت السنوات الأولى من هذا القرن ، امتدادا واعيا لمدرسة جمال الدين الأفغانى ، التى نبتت بذورها فى النصف الثانى من القرن التاسع‌عشر • ويتمثل‌هذا الامتداد ــ ضمن مايتمثل ــ فى قيام لطفى السيد باصدار جريدته، وما صاحب ذلك من ظواهر لها دلالتها الهامة ، مثل انشاء الجـامعة المصرية الأهلية ، ودعـوة طلعت حرب لتحقيق الاستقلال الاقتصادى ، وغير ذلك من ظواهر اعادة مصر للمصريين ، كخطوة للخلاص من نير الاحتلال الانجليزى •

لقد ترك كل ذلك أثره على الانتاج الأدبى لدى شبان ذلك الوقت • لكن برغم ذلك ، فان مطالعــة الانتــاج القصــصى فى تلك الفترة تؤكد أن أولئك الكتاب كانوا

متعــــاطفين فقط مع الفقراء ، وكانوا فى نقدهم للأثرياء مجرد دعاة اصلاح ، ينقصهم الكثير من الحماس والصدق ٠

ففى انتاج محمد تيمور ـ ويهمنا منه هنا «فى القطار» لأنهــــا تتخذ من مشكلة تعليم الفلاح محورا لاحداثها ـ نجــد أنه مجرد مثقف يتحدث عن الفلاح والريف بعطف شديد ، وبحماس يجعله ينسى البعد الحقيقى لمأساة هذا الفلاح ٠ فها هى القصة تقدم محــــاورة بين : المؤلف ، وشيخ من المعممين ، وأفندى وضاح الطلعة ، وشيخ شركسى الأصل ، وعمدة ، وطالب ٠ وهؤلاء جمعتهم مصــــادفة السفر فى القطار الى الريف ٠

ومحاورة هؤلاء تدور حول : هل التعليم أجدى للفلاح أو الكرباج ؟ وأغلبية الآراء ترى أن الســوط لا يــكلف الحكومة شيئا ، و « لا تنسى أن الفلاح لا يذعن الا للضرب لأنه اعتاده من المهد الى اللحد ٠٠ »

ذلك ما تتضمنه هذه الاقصوصة ، وهو جميل فى حدوده ٠٠ لكن « تيمور » كان فيها بعيدا كل البعد عن الفلاح الذى تحمل ابان حرب ١٩١٤ تضحيات شــــتى ، فالحكام قد أخذوا منه مواشــــيه وحبوبه ، وما عنده من مصوغ أو حلى ـ ان وجدت ـ ليرسلوا كل ذلك هدايا الى الحجاز لشراء معاونة العرب للانجليز ، كما أنه ـ الفلاح ـ أرســــل أعزل الى خطوط النار على طريقـــة « التطوع الاجبارى » !

ذلك كله ، أو بعضه ، لم نجد له صدى فى قصة محمد تيمور ، التى لا تخرج عن كونها مشهدا خطابيا يعبر عن تعاطف انساني مع الفلاح الذى يجب الاهتمام بتعليمه .. وهذه خطوة هامة ــ برغم كل شيء ــ فى موقف الأدب من قضية الفلاح .

●

وفى مجموعة « احسان هانم » التى صدرت عام ١٩٢١ لعيسى عبيد ، نجد قصة « مأساة قروية » التى جعلته كمن أقحم نفسه على عالم غريب عليه ، فهو قد أجاد فى تصويره الصادق لبيئة المدينة ، لكنه عندما ينتقل الى بيئة القرية ، يتعثر . فها هو ذا هنا يقدم لنا قصة الفتاة « فاطمة » التى كانت تحب ابن عمها ، الى أن أغراها فخرى ابن الباشا فأحبته انبهارا منها برقة حديثه ، وتسلمه نفسها طمعا فى الزواج به ، لكنه ينال مأربه منها ثم يتركها حيث تنتهى مأساتها بالقتل غسلا للعار .

وقد حشا عيسى عبيد قصته هذه بوصف جمالى لمناظر الريف ــ فهو ــ كزائر ــ قد انبهر « بجماعات الفلاحين من رجال ونساء وأطفال يتدفقون من الأكواخ المظلمة .. » كما انبهر بمشهد البرسيم الممتد على الأرض بعيدانه الرقيقة اللينة ..

وقد نبهنا عباس خضر ــ فى دراسته عن نشأة القصة القصيرة فى مصر ، الى الخطأ الذى وقع فيه عيسى عبيد فى غمرة انبهاره هذا بالبرسيم ، فنسى ان البرسيم لا يزرع

الا فى أوائل فصل الشتاء ، وليس فى الصيف ·· وهو الزمن الذى تدور فيه قصته ··

لكن الأهم بالفعل هنا ، هو أن قصة « مأساة قروية » شأنها فى ذلك شأن قصة « حديث القرية » لمحمود طاهر لاشين ، لا تعطينا سوى نتيجة واحـــدة ، وهى أن كتاب المدرسة الحديثة لم يكن لديهم التصور الكامل لأســـباب الظلم الاجتماعى الذى يعانى منه الفلاح ، ولم يشغلهم من ثم البحث عن علاج له ·

ومن هنا ، نجد أن محمد تيمور ، كان ساخطا أشد السخط على الشركسى ومن يرون رأيه فى أن الكرباج هو أنجح علاج للفلاح ، لكنه لا يقدم لنا حلا للمشكلة ، فهو قد ترك القطار ــ عند محطة ــ وذهب الى مزرعته ·

كذلك عيسى عبيد ، برغم أنه جعل الفلاح يقتل ابن الباشا غسلا لعار فاطمة ، وأيضا ، طاهر لاشين الذى يتألم لحال الفلاح فى القرية التى ذهب اليها زائرا ، لأن كلا منهما ، كان يرى الفلاحين مجرد « حشد من الرعاع » !

وقد يكون وصف هؤلاء الأدباء لمظاهر الفقر والتعاسة، تعبيرا عن « سخطهم » وارهاصة ثورة بداخلهم ·· لــكن ما أشبههم ــ على حد تعبير يحيى حقى اللاذع : « ما أشبههم بالذى يحض على اكرام الجار ، واذا جاء هـــذا الجار الى داره ، ضاق به ذرعا » ! ·

وحقيقه اخرى ، هى أن الفلاح فى قصـــص سوده الرواد انسان سلبى تماما • فان قضـــيه الفلاح عندهم كانت : لوحات روماسيه لا تعبأ بغير مناظر واخلاق الريف ـ ربما تأثروا بـ « زينب » ـ ولذلك فلن نرى الفلاح فى قصصهم الا من خلال وجهة نظر الزائر الغريب ، اذ لم يكن قد قدر بعد أن تخرج لنا قصة يصوغها اديب جاء من بين الفلاحين يحمل مأساتهم فى وجدانه وضميره •

●

وفى عام ١٩٢٥ ، أصـــدر محمود تيمور مجموعته القصصيه الأولى « الشيخ جمعة » •• التى ضمنها مقدمه تحمل رأيا مبكرا فى فن القصة القصيرة « الرافية » على حد تعبيره ، وفى هذه المقدمة يرى أن واجب القصصى ان « يكتب عن الحياة التى تضم فى ميدانها ، كل جميـل وكريه •• الحياة القاسية والعادلة ••الخ•• »

واذا بحثنـــا عن الفلاح عند محمود تيمور فى هذه المجموعة سنجده فى قصته الأولى « الشيخ جمعة » التى جعل عنوانها اسما للكتاب •

ان الشيخ جمعة هنا كان يحكى لتيمور ـ مرة كل عام حيث كان يأخذه والده للاستجمام فى الضيعة التى يحرس جرنهـا شيخنا « جمعة » ـ كان يحـكى له قصة « سيدنا سليمان وما جرى له من النسر الهرم الذى عاش

ألف ألف سنة .. » ويروى له حكايات السيد البدوى الذى حارب الجيوش قبل أن يولد .. الخ ..

والواضــــح أن العلاقة بين تيمور والشيخ جمعة ، علاقة انسانية متصلة . فتيمور يلتقى به ويأنس لحديثــه كلما زار الضيعة ، والشيخ جمعة يبيت عند تيمور كلما ذهب الى مصر لزيارة بيوت أولياء الله .

وهذا ـ لا شك ـ عمل طيب . لكن ما تتضمنه القصة فى كثير من تفاصيلها يجعلنا ندرك أن تيمور قد صاغ قصته لكى يقول لنا ان الشيخ جمعة شأنه شأن غيره من الفلاحين : « رجل سعيد بايمانه ، قانع بمعيشته ، منعم بخيالاته » فهو « الرجل البعيد كل البعد عن العالم المعقد ، والفلسفة السقيمة ، الرجل الذى تسعى اليــه السعادة الحقيقية فيتمتع بها تمتعا صحيحا .. » .

ثم يقول فى نفس الصــــفحة (ص٧) « فما أحلى عيشتك أيها الرجل .. وما أحلى تلك الأيام اللذيذة التى تقضـيها فى دنيانا وما أحلى سذاجتك » .

ومعنى هذا أن تيمور ، فى هذه اللوحة القصصية ـ كما يسميها يحيى حقى وعباس خضر ، يريد أن يقول لنا: انه لا داعى اطلاقا للتألم من أجل الفلاح .. أو التفكير فى حل مشاكله .. « فما أحلى عيشتك .. » !

ولكى نوضح أنفسنا أكثر ، ننصت الى حديث تيمور وهو يفصح عن موقفه فى رسالة كتبها فى ١٤ من مارس سنة ١٩٢٦ ، الى صديقه زكى طليمات الذى كان يدرس التمثيل آنذاك فى باريس · يقول تيمور بعد جولة له فى « ضيعته » :

« ·· ولكنى خرجت من هذه الزيارات والمعاينات والتفتيشات بمعلومات كبيرة جدا ·· ولكنها يا للأسف مؤلمة ، لقد دخلت بنفس منازل هؤلاء الفلاحين بعد ما تفقدت الحارات الضيقة المتعرجة فاذا هذه المنازل ـ لا ، أستغفر الله بل هـذه « الزرائب » ـ بل هذه الأوكار ، بل هذه المغاور ·· سمها كما شئت ، اذا بها أماكن أستحى من أن أربى فيها بعض الكلاب الضالة .. وفى هذه الحارات ، رأيت الأقذار هى والأطفال والكلاب واحد لا فرق بينها ·· ولا أكتمك أنى شعرت بشىء من الاشمئزاز عندما قدموا الى وللشقيق ولجماعة النظار طعام الغداء الذى استهلوه بديك رومى ، ثم أتبعوه بسبعة أصناف من اللحوم والبقول ··· ولا أكتمك أيضا أننى كدت أصاب بالتخمة ، بينما الرجل النساج مصاب على التوالى بالجوع . يا ظلم الانسان . ألم يصب تولستوى عندما وزع ثروته جميعها على الفلاحين ؟ ·· ولكنى غير تولستوى ، ويستحيل على أن أفعل مافعل الا اذا وصلت لدرجة ايمانه بمبادىء العدل والمساواة ·· »

هذه هى رسالة محمود تيمور بنصها ، الذى نشره

تيمور نفسه فى حديث صحفى عنه بمجلة آخر ساعة فى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٦٢ ، وهى ليست فى حاجة الى أى تعليق ، لأنها تكشف عن موقف تيمور بوضوح شديد من قضية الفلاح ·

اننى لا أقول بأن تيمور كان مطالبا برد غائلة الجوع عن فلاحى ضيعته ، وانما ـ فقط ـ أريد أن أقول : ان هناك فروقا كثيرة بين ما يتحدث به هذا الكاتب الكبير من خلال موقعه فى الحركة الثقافية ، وبين ما كتبه بالفعل فى قصصه ·· تماما كما أن هناك فرقا شاسعا بين مأساة الفلاح الذى حدثنا عنه تيمور فى رســـالته ، وبين تلك الصورة الحالمة التى رسمها له فى قصته « الشيخ جمعة » ·

ان هذه القصة تذكرنا بالدروس والأناشيد التى كانت تتغنى بريفنا الجميل ، ومياهه العذبة ، وهوائه النقى ، وخيره العميم ، فهى تقــول ان الريف عند تيمور ، عالم سحرى لا يمت لأرضنا بصلة ، ومن ثم فعلينا أن ننسى قرانا الكئيبة ، الموحشة ، لأنها ليست هى الريف الذى تصوره قصة الشيخ جمعة ، بأسلوب شاعرى جذاب ·· مغفلة أمر الانســان الذى يعيش فى الريف ، متجاهلة مشاكله المزمنة ، ونضاله الصامت ضد واقع مرير ·

وقبل الانتقال الى الفصل التالى ، أرانى فى حاجـة الى اعادة القول ، بأن كتاب المدرسة الحديثة ـ ومحمود

تيمور أحد تلاميذهم المخلصين ـ لم يكن لديهم التصــــور الكامل لأسباب الظلم الاجتماعي الذي يعاني منه الفلاح ٠٠ ومن ثم ٠٠ انحصر حماسهم له في نطاق « التعاطف » معه ، بوصفه من الطبقة الفقيرة التي كان يجب على سراة القوم ـ ـ آنذاك ـ أن يجودوا عليه ببعض خيراتهم ، التي جمعوها من عرق الفلاحين ، في ظل نظام اجتماعي ظالم !

الفصل الخامس:

يوميات نائب فى الأرياف

عندما نصل الى عام ١٩٢٩ ، وما بعده بقليل ، نجد أن قضية الفلاح قد بلغت ذروة من ذراها المأساوية المزعجة، فى ظل ارهاب وزارتى محمد محمود ، وصدقى باشا ، حيث عادت السلطة للسوط ، فزيفت الانتخابات ، وخربت اقتصاد البلد ، وانعكس ذلك كله على الفلاح ، فصار أكثر جوعا وعريا من ذى قبل ٠

وفى هذه الفترة ـ بالتحديد من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣١ ـ كتب توفيق الحكيم قصته « يوميات نائب فى الأرياف » التى نشرها فيما بعد عام ١٩٣٧ ٠

وعلى الفور يثور التساؤل : ما هو صدى مأساة الفلاح فى تلك الفترة عند الحكيم ؟ وهل وقف بجوار الفلاح فى معاناته ، كنوع من أنواع الاحتجاج ضد الأوضاع الظالمة آنذاك ؟

ان توفيق الحكيم يقطع علينا الاسترسال فى مثل هذه التساؤلات بكلمات صريحة محددة تقول لنا ان موقفه من ذلك كله كان واضحا ٠٠٠ فبرغم أنه رأى جوع الفلاح وعريه وجهله ومرضه فانه كان مهتما بالدرجة الاولى بتنفيذ القانون « ان المسألة قبل كل شيء مسـألة قانون » وان القانون جائر !

ومع ذلك فالقصة تغرى بالمناقشة ، لا لأنها تروى قصة التحقيق فى مقتل الفلاح « قمر الدولة علوان » وتطورات هذا التحقيق المثير ، وانما لأنها أول قصة تضعنا أمام جانب هام من جوانب قضـــية الفلاح ذلك هو : موقف المثقفين من هذه القضية ٠

ففى هذه القصة نلتقى بعدد من رجال القاهرة ، الذين يعتقدون أنهم « نكبوا » بالعمل فى الريف ، والذين يطلقون على الفلاح أوصاف : الجاموس الأبيض ـ الخروف ـ الذباب ـ البهيم ٠٠ الخ !

ان مناقشة « الحكيم » فى موقفه من الفلاح و اليوميات يجب أن تكون من خلال آراء شخصياته وهم هنا: النائب ـ أو الحكيم ذاته ـ ومأمور المركز ، والقاضى ، والطبيب ـ وغيرهم من رجال الادارة فى الريف لندرك الى أى مدى كان موقف المثقفين من الفــلاح مثبطا لمحاولات الاصلاح ، وما كان اقلها !

وفى مقدمة رجال القاهرة هؤلاء ، نلتقى بالنائب ، الرجل الذى يعرف القــانون وينفذه ، ويقتص له من المخالفين لتعاليمه ٠ والخارجون على القانون فى القصـــة كلهم من الفلاحين ٠ والنائب دائما لا يرى الفلاحين فى المحكمـــة ، حيث جاءوا بحثا عن حقوقهم الضـــائعة ، الا « مكدسين كالذباب » « ص ٢٧ » ٠ أو يجلسون القرفصاء كأنهم الماشية ـ ص ٣٠ !

ويشارك النائب فى مطاردة الفلاحين باسم القانون اثنان من القضاة ، أحدهما « يقيم فى القاهرة ولايأتى الا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذى يعود الى القاهرة • ومهما زادت القضايا فان هذا القطار لم يفت القاضى يوما قط (ص ٢٧) أما القاضى الثانى فيقيم مع أسرته فى دائرة المركز فهو يبطىء فى نظر القضايا « ولعله أيضا يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هذا الريف » •

وأمام النائب وأحد القاضيين تمثل المهزلة كل يوم ، حيث يعاقب المظلومون باسم القـانون • فهذا رجل متهم بغسل ملابسه فى الترعة يحكم عليه بالغرامة ، فيتساءل فى دهشة « واغسلها فين ؟ »

وأمام هذا السؤال يتردد القاضى ، ولا يســتطيع جوابا •

أما الحكيم ، فهو يقرر أن : « النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون » ـ صد ٣١ •

●

وتزخر القصة بلوحات متنوعة ، نلمس فى عرضها سخرية الحكيم من الجميع : من الذين يطبقون القانون ومن الذين يطبـق عليهم القانون ومن القانون نفسه ـ على حد تعبير يوسـف الشـارونى فى كتابه « دراسات فى الأدب

العربى المعاصر » (ص ١٢٢) الذى يرى أن الحكيم « لم يكن عاطفة مودة أو احترام لأى طرف من هــــذه الأطراف الثلاثة » .

وتتبعنا لهذه اللوحات الســـاخرة يكشف لنا مدى استهتار رجال الادارة بقضية الفلاح ، والمدى الذى ينحدر اليه حال الفلاح من المذلة والضياع ، فهذا فلاح متهم بسرقة « وابور جاز » من أمام دكان بدال القرية ، وتلك متهمة بأنها « عضت » أصبع فلاح أراد صلحا بينها وبين زوج ابنتها .. الخ .

لكن لوحة من هذه اللوحات تستوقفنا لدلالتها الهامة، ففى صفحتى ٥٦ ، ٦٠ من الكتاب نقرأ :

« دخل فلاح كهل وقد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبع » :

ـ أنت سرقت كوز الذرة ؟

فأجاب الشيخ من جوف مقروح :

ـ من جوعى .

فقال المساعد ـ مساعد النائب ـ فى لهجة الانتصار :

ـ اعترف المتهم بالسرقة .

ـ ومن قال انى ناكر . أنا صحيح من جوعى نزلت فى غيط من الغيطان سحبت لى كوز .

وسأله النائب :

ـ يارجل لماذا لا تشتغل ؟

ـ يا حضرة البك هات لى الشغل وعيب على ان كنت أتأخر ، لكن الفقير منا : يوم يلقى ، وعشرة ما يلقى غير الجوع ٠

ـ أنت فى نظر القانون متهم بالسرقة ٠ ثم يصدر القاضى حكما بحبس المتهم ؟

ان الحكيم ينظر بنفاد صبر الى الفلاحين ومشاكلهم ويضيق مع ذلك بهم وبشكاتهم المتكررة ٠٠ « آه من هذه الشكاوى ٠٠ انها أكثر عددا من ذلك البق الزاحف جيوشا على حوائط دار النيابة ٠ »

« يخيل الى أن الفلاح انما يخرج الى سوق الخميس من كل أسبوع ليبيع كيلة ذرة ليشترى قليـلا من السكر والشاى ويملأ زجاجة « السيرج » ويستكتب أحد الكتبة العمومية « بلاغا » أو « عريضة » ضد مأذون الناحية ، أو العمدة أو وكيل شيخ الخفر ، ولعل هذا أصبح بندا ثابتا من ميزانية كل خارج الى السوق من هؤلاء الفلاحين ٠٠ لست أدرى لذلك سببا ٠٠ أهو الظلم حقا أم هو داء الشكوى» (ص ١٥٦) ٠

ان الحكيم لم يحاول أن يعرف أسباب المأساة ٠٠ استعرض بعضها ـ هذا صحيح ـ لكنه لم يتوقف أمام أحدها ليحلله ويناقشه كما حلل وناقش ـ مثلا ـ ضيقه

من الريف : « لقد سئم الريف .. انه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن يدخلها مثله .. أين يتنزه ؟ وأين ينفق وقته ؟ انه لا يكاد يرى غير مبان قليلة أكثرها متهدم ، وغير هذه الجحور المسقفة بحطب القطن والذرة يأوى اليها الفلاحون .. فى لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماد وفضلات البهائم ، وفى تجمعها وتكدسها «كفورا» و «عزبا» ، مبعثرة على بسيط المزارع ، هى بنفسها قطعان من الماشية مرسلة فى الغيطان .. هذه القطعان من البيوت التى تعيش فى بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هى كل ما تقع العين عليه فى هذه البقاع .. » الخ .. (ص ٥٤ — ٥٥) .

وهكذا رسم توفيق الحكيم بقلمه الساخر ، ملامح مأساة الفلاح .. وتسلط رجال الادارة عليه من ناحية ، والعمدة وحلاق الصحة والداية من ناحية أخرى .

لكن — يبقى — مع ذلك — السؤال :

— ما هو صدى كل هذا عند الحكيم ؟! هل اتخذ موقفا ما ؟

ان الشىء الذى يحمد لهذه القصة — هو ادانة كاتبها لكل الموظفين العاملين فى الريف . لكنه لم يقصد هذه الادانة ، فقد جعلنا — دائما — متعاطفين معهم ، مشفقين عليهم .. وليس هذا غريبا ، فالقصة على أية حال اسمها « يوميات نائب فى الأرياف » وليست يوميات فلاح من الفلاحين الذين بذل الحكيم كل جهده ليضحكنا عليهم ..

ان الحكيم قدم لنا لوحة عريضة للمجتمع المصرى فى مرحلة الثورة الوطنية ، فى روايته « عودة الروح » ، وأثبت لنا أن المصريين « ليسوا هؤلاء الفقراء المرضى الجهلة الذين تنظرهم العين فلا ترى فيهم الا كل ما يغرى بالامتهان ، بل هم الورثة الطبيعيون لقوة نفسية هائلة استطاعت يوما ما أن تبنى الأهرام ·· » على حد تعبير د · على الراعى فى كتابه « دراسات فى الرواية المصرية » ص ١١٢ ·

لكن الحكيم عندما قدم لنا صورته البانورامية للريف فى « اليوميات » كان ـ بكل فروض حسن النية ـ ساخطا ، لكنه « سخط » لا يصاحبه « أمل » مستمد من الواقع ، ومن هنا فسخطه يؤدى الى اليأس ، واليأس هو الذى أوصل الحكيم الى « برجه العاجى » بانفراديته وانعزاليته ، على حد تعبير د · عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم فى كتابهما « فى الثقافة المصرية » ص ٣٢ ··

آراء ثورية ·· ولكن

الا أن هذا كله لا يقلل من اضافات الحكيم الأساسية لتراثنا الفنى والأدبى ·· ، فكثيرة هى الآراء الثورية التى تطالعنا فى مؤلفاته النظرية ، مثل رأيه فى المضمون الاجتماعى للحرية ـ فى كتابه ـ « حمارى قال لى » الذى صدر عام ١٩٥٤ الذى يقول فيه ـ ان الحرية فى مصر « تعنى الارتفاع بمستوى الفلاحين وتوطيد المركز الاقتصادى » ص ٥٧ ··

كذلك موقفه من الفلاح – على وجه الخصوص – وهو ما يهمنا هنا ، نجده مبلورا وان اتخذ شكلا خطابيا – على حد تعبير الناقد غالى شكرى – فى كتابه « ثورة المعتزل – دراسة فى أدب توفيق الحكيم » ، – فى تفاخر أحد ركاب القطار بمصريته – فى الجزء الأول من « عودة الروح » – قائلا :

– « أهل مصر شعب أصيل عريق ، من ٨ آلاف سنة واحنا فى وادى النيل ، وكنا نعرف الزراعة والفلاحة ، ولنا قرى ومزارع وفلاحين ، وقت ما كانت أوربا لسه ما وصلتش حتى لدرجة التوحش » .

ان مثل هذين النصين ، يوضحان لنا كيف دافع الحكيم عن فكرة المصرية ، فى وجه الاحتلال الذى أراد مسخ حضارتنا ، وهو دفاع يتضمن ايمان الحكيم بالفلاح ،لكنه هنا ايمان عام .. أى أن تظهر وتتأكد « المصرية » أولا ، بصرف النظر عن جزئيات القضية .

لكن هل يبرر كل هذا عدم اهتمامه فى قصته التسجيلية العريضة « اليوميات » – ولا أقول اهماله – لصاحبة أحلام الفلاحين ؟ وكان باستطاعته أن يفعل ذلك لو أنه لم يركز كل التركيز على السلبية ، وهى داء متوارث فى الريف – هذا صحيح – ولكن لا توجد قرية تخلو هذا الخلو الكامل من شخصية واحدة رافضة للسلبية ، وان اتخذت لرفضها هذا أساليب ساذجة .

ان هذا ما نعتقده فى اليوميات ، حقا ، وهو ـ بمعنى آخر ـ وجه التقصير فيها . ومن هنا فهى لم تطرح شعار العدل الاجتماعى عن طريق حدث أو شخصية فنية كان يمكن ايجادها فى السياق الفنى للقصة .. ومن هنا أجدنى أمام حقيقة واحدة مؤكدة ، وهى أن يوميات نائب فى الأرياف لم تكن الا تعبيرا عن نظرة القاهرة بحكامها وموظفيها ومثقفيها أيضا للريف ومن فيه ، وهى نظرة قد ضلت طريق الحلول الجذرية لمأساة الفلاح ، برغم كل الآراء الاصلاحية التى أوردها الحكيم فى مؤلفاته النظرية ، والتى سبق أن أشرنا الى بعضها .. فقد كانت الهوة واسعة بين آراء الحكيم وبين أغلب أعماله الفنية ، وبالذات قصة اليوميات .. ولعل تفسير ذلك يكمن فى « تعادليته » المعروفة . ولا شك فى أنه يعرف أن القانون الذى يعاقب السارق ليس قانونا جائرا ، وانما الظروف التى تدفع للسرقة ـ هى وحدها الجائرة . وهكذا . مرة أخرى تبقى قضية الفلاح ، فى انتظار الكاتب الذى يعالجها من خلال موقف اجتماعى واضح ، مثلما فعل د . طه حسين . كما سنرى .

الفصل السادس

المعذبون فى الأرض

فى أعقاب الحرب العالمية الثانيـــة نشر الدكتـــور طه حسين لوحاته القصصية عن الريـــف فى الصعيد ثم جمعها بعد ذلك فى كتابه المعروف « المعذبون فى الأرض ».

وفى هذا الكتاب نلتقى بكلمة طه حسين ـ كلمـة قالها ((فى لغة الفلاح الجافية يماؤها مع جفوتها الحب والاشفاق» .. فهو ساخط على الفلاح وبؤسه مندد بهذا الشقاء وهذا البؤس ، مطالب بأن يحل ((العدل)) محل الظلم ، لينال الفلاح حقه ، ويتخلص من تعاسته . وطـه حسين فى هذا كله يصدر عن موقف اجتماعى واضح ؛ ينبع من فكر متفتح حر ، صلب وعنيد فىوجه الحكومات والأحزاب ايضا ..

وتكسب المشكلة الاجتماعية فى مصر ، بالدكتور طه حسين ، مؤيدا عنيدا لا يعرف المهـــادنة ، ولا يرتضى انصاف الحلول .. ففى كل كتاباته كان يدعو الى ((العمل الشـورى العلمى المنظم)) على حـــد تعبير محمود أمين العالم ..

.. وموقف طه حسين من قضـية الفلاح ، لم يكن موقف المثقف المتعالى فهو برغم دراسته فى باريس ، ثم عودته وبقائه في القاهرة عميدا للأدب .. برغم ذلك ، لم ينس طه حسين نشأته الريفية فى صعيد مصر ، وظـل

أمينا لهؤلاء الناس الذين صوروهم بقلمه فى لوحات قصصية تظهر الداء وتشخص الدواء أيضا ..

●

ان أهل الريف عند طه حسين ، اناس مكرة أذكياء .. ولكنهم مع ذلك سقطوا فى شرك الظلم الذى خططته الحكومات الرجعية التى نسج على منوالها كل من اتصل بالفلاحين من رجال ادارة ، وفقهاء مشعوذين !

وفى كتابه ((المعذبون فى الأرض)) نلتقى بلوحات قصصية ، تذكرنا على الفور بلوحات الحكيم فى ((يوميات نائب فى الأرياف» ، لكن لوحات طه حسين تقنعنا بدعوته الى ((العدل)) بعكس الحكيم الذى كان يحلم فقط ((بتعديل القانون المستورد)) .. ولست فى حاجة الى القول بأن رأى طه حسين كان أصوب ، لأن ((العدل)) كفيل بألا يضع الفلاحين تحت طائلة قانون «نائب» الحكيم فى يومياته.

ونعود الى فلاح طه حسين لنجده ـ كما يصور ذلك بصدق وأمانة فى ((الأيام)) ـ محاطا بنماذج من الفقهاء المنبثين فى القرى والريف ((ولم يكونوا أقل من العلماء الرسميين تأثيرا في دهماء الناس وتسلطا على عقولهم)) .. وهؤلاء الفقهاء . كانوا على اتصال بأهل الطرق وكانوا يسمون انفسهم بـ « حملة كتاب الله » .. ومنهم من كان ((حمارا)) ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم ، ثم أصبح تاجرا ، ومنهم من كان ((خياطا)) و .. الخ

.. وكان أذكى هؤلاء الفقهاء واشـدهم علما ، اذا سئل ((ما معنى قول الله تعالى وخلقناكم أطوارا ؟)) يجيب هادئا مطمئنا : ((خلقناكم كالثيران لا تفهمون شيئا)) (ص ٨٧ ـ الأيام) .

ومن هنا نستطيع أن ندرك الحاح د · طه حسـين فى دعوته بأن يكون العلم للجميع كالماء والهواء . فهـو قد نشأ فى الريف ليجد أن هؤلاء الفقهـاء يتسلطون على عقلية الفـلاح ، ولمس أن زيارة الشيخ من هؤلاء لفـلاح كانت تستهلك كثيرا من القمـح والعسل وما الى ذلك ، وكانت تكلف صاحب البيت الاقتراض لشراء ما لا بد منه لارضاء الشيخ ··

.. ويضاف الى أهل الطرق وفقهائهم رجال السحر والطلاسم ، وباعة الكتب الخاصة بقصة القط والفار ، وحوار السلك والوابور ، وشمس المعـارف الكبرى فى السحر .. الخ ـ وكان الناس يشترون هذه الكتب كلها ويلتهمونها ، ولذلك نشئوا بعقلية فيها سذاجة وتصوف وغفلة « ص ٩٦ ـ الأيام » .

لوحات من العذاب

بهذا الادراك الواعى ، الذى يضعنا طه حسين فى اطاره ، نلتقى بلوحاته فى ((المعذبون فى الأرض)) ، لنتعرف على قضية الفلاح ، حيث كان أهل الاقليم ينتقلون ولا يأبون على أنفسهم الهجرة من قرية الى قرية ومن مدينة

الى مدينة داخل الاقليم بحثا عن لقمة الخبز . وحيث كانت الكثرة من المصريين « لا يجد أحدهم ما ينفقه فى رزق نفسه وفي رزق من يعول فيشقى أشد الشقاء وأعظمه بما يجد من الحرمان)) ..

فالفلاح — فى اثناء الأعوام الأخيرة من العهد الماضى— كانت عينه تبصر الى أبعد ما يبلغ البصر ، وكانت يده قصيرة الى ادنى ما يكون القصر .

فى هذه اللوحات سنجد الفلاح عند طه حسين رجلا امينا برغم جوعه « كان يرى الطيبـــات بين يديه فتتوق اليها نفسه ، وتتوق اليها نفوس بنيه وبناته ، فاذا أراد أن يمد اليها يده ، ابت أن تمتد كأنما أصابها الشلل .. فكان يكظم غيظه ، ويصبر نفسه على مكروهها ، ويصبر أهله على البأساء والضراء ، وينتظر العدل الذى يبطىء عليه فيغلو فى الابطاء)) .

كذلك كان الفلاح يرى الآفات المختلفة تصطلح على جسمه ونفسه وعلى أجسام عياله ونفوسهم ، ويهم أن يصلح مما تفسده تلك الآفات ، فيقصر به همه ويقعد به عزمه ..

والحل الذى يراه طه حسين لكل هذا الشقاء .. هو العدل . فالفلاحون بؤساء ، ومعذبون .. ((لكنهم لا يجدون الى الخلاص من ضيقهم الثقيل الا أن يأتى العدل فيلقى بينهم وبين ضيقهم ستارا)) .

ولعلنا ـ الآن ـ يجب ان نقف أمام لوحة من لوحات ((المعذبون فى الأرض.)) لنتعرف على فكر طه حسين ، فى سعيه الى احلال « العدل » بين الناس مكان الظلم :

فى لوحة تحمل أسم ((صالح)) .. يروعنا ((ثوبه الممزق)) الذى ظهر منه صدره أكثر مما ينبغى ، وقد انشق عن كتفيه فظهرتا منه نابيتين ، و لثوب على ذلك رث قذر يظهر من جسم الصبى اكثر مما يخفى ، كأنه أســـمال قد وصل بعضها ببعض وصلا ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقا ما ، لتستر منـــه ما تستطيع ، وليقال ان صاحبـــه لا يمضى به متجردا عريانا)) ..

وصالح لا يحصل على وجبة تشبعه الا اذا حمل طاقة من زهور الحقول لصـــديقه الصبى الموسر بعض الشىء ، لكنه مع ذلك ليس هو ـ بجزئيات قصـــته التى تقول لنا انه معذب مع زوجة أبيه ، وان أمه مطلقة و .. الخ .. ليس هو غير رمز للوحة كبيرة عريضة تشـــمل بلادنا جميعا ، وتعبر عنها أيضا .. فصالح هذا ((يملأ المملـكة المصرية من شرقيها الى غربيها ، ومن شمالها الى جنوبها .. يملأ مصر نعمة وخيرا ، وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هى بلد البؤس والشقاء » ..

ويؤكد طه حسين هذا الشـــمول فى الرؤيا ، وهو شمول ما كان ليتحقق الابفكر كفكر طه حسين ، الذى جعل

من «صالح» رمزا لكل فلاح في بلدنا ، لكنه أيضا يؤكد ادانته لكل الذين أهملوا قضية الفلاح . فهؤلاء لا يحسبون لواحد مثل صالح خطرا أو يعرفون وجودا ولايلتفتون اليه.

لذلك كانت مهمة طه حسين أن يسترعى نظرنا الى « صالح » كصورة للبؤس والشقاء والحرمان و « ما كان أقل المصريين الذين لا يصورون بؤسا وشقاء ولا حرمانا » .

صالح ـ كما قلنا ـ كان رمزا لمصر التى تحولت الى جدار هائل صورت عليه كل عذابات الانسان المصرى ، والفلاح خاصة .

●

واذا كان صالح « معدما فقيرا لا يجد ما يقوت به نفسه » ، فكذلك كان « قاسم » صاحب اللوحة الثانية فى « المعذبون فى الأرض » .. وقد كان قاسم عليلا أنهكه المرض ، وكان يسل جسمه سلا ، ومن أجل ذلك لم يكن يجد ولا يكد ولا يضطرب فى شئون الحياة كما يضطرب غيره من الناس وانما كان ينفق أيسر الجهد ليمسك الحياة على نفسه وعلى أسرته الصغيرة ـ وهى زوجته أمونة ، وابنته سكينة ـ فيسعى الى النهر بين حين وآخر فان ساق الله الى شبكته شيئا من السمك باعه واشترى ما يصلح أمره وأمر زوجته وبنته » ..

وتنفجر مأساة صالح ـ أو قاسم ‥ أو أى اسم آخر ‥ فالمشكلة واحدة ـ تنفجر ، عندما يكتشف قاسم، وزوجته أمونة ، أن ابنتهما اضطرت تحت سطوة الجوع والعرى ، أن تخرج كل ليلة لتسلم نفسها الى « زوج عمتها » الذى اغواها ببعض الحلوى والثياب ‥ « وما أكثر وسائل الاغراء للذين يبهظهم الشقاء » !!

وقاسم الذى صدق الخبر لم يضرب ابنته كما فعلت الزوجة التى كادت تجن وانما ذهب الى النهر ، ورمى بنفسه ‥ حيث مضى الى الغيب ‥ فقد كرامته ‥ و« مهما يبلغ الفقر بالناس ومهما يثقل عليهم البؤس ، فان فى فطرتهم شيئا من كرامة » . وكل ما قاله قاسم قبل أن يذهب هو « ما ينبغى للفقراء أن يلدوا البنات » ! وتتوالى الصور ، مجسمة للشقاء لتحفزنا حفزا للنضال مع طه حسين ، ومن أجل احلال « العدل » محل الظلم الاجتماعى الذى ساد ، فحول بلادنا الى جدار هائل صور عليه الشقاء والحرمان . فصالح هو قاسم وأمونة هى خديجة ومحبوبة وكل فلاح فى أرضنا . وفى كل لوحة من هذه اللوحات يعلو صوت أستاذنا العظيم طه حسين : « لست أنفر من شىء كما أنفر من ترغيب الأغنياء فى العطف على الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء ، ما أنا وهذا كله ؟ »

●

وانما طه حسين ، يدين كل المثقفين الذين « لايذوقون التضامن طعما ، ولا يعرفون للتعاطف قدرا ، ولا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم فى بعض ، ولا يأنس بعضهم لآلام بعض » ٠

لكن ٠٠ كيف الخلاص ؟! سؤال يحركه طه حسين فى عقولنا ٠ فهو يحفزنا للنضال من أجل المعذبين فى الأرض ٠ وهو سؤال يفرض نفسه علينا طوال قراءتنا لطه حسين فى كل كتبه ، لكنه يزداد الحاحا ونحن نتتبع قضية الفلاح عنده بشكل خاص ، حيث يظهر الداء ويحصره فى اطار نستشف منه العلاج ٠

فالفلاح فى « المعذبون فى الأرض » ، صورة من فلاح « الأيام » ، و « شجرة البؤس » ، و « دعاء الكروان » ٠٠ وسقوط الفلاح والفلاحة فى قبضة الانحراف الخلقى تارة، والجريمة تارة أخرى ، هو ادانة حادة وصريحة لكل ماأورثته الحكومات السابقة للفلاح فى بلادنا ٠ وكم كان صوت طه حسين القوى ، مشجعا على اقدام كثير من أدبائنا على معالجة الفلاح بموقف اجتماعى واضح وصريح ٠٠ مثال ذلك ما نجده فى قصة « الأرض » ٠٠ للشرقاوى ، فى الفصل التالى ٠

الفصل السابع

الأرض .. والمجابهة

فى يناير عام ١٩٥٤ ، تصدر الطبعة الأولى من قصة « الأرض » لتنتقل بالقضية الى مرحلة جديدة وهامة ..

وفى السطور الأولى يضعنا عبد الرحمن الشرقاوى ، جنبا الى جنب فى منـــاخ اجتماعى واحد مع الفلاحين ، ويجعلنا نتبنى قضية كل من وصيفه وعبد الهادى وخضرة. وعلوانى العرباوى ومحمد أبو سويلم والشيخ يوسف .. وكل النساء والرجال والأطفال الذين عرفهم فى قريته منذ عشرين سنة ، اى فى حوالى عام ١٩١٤ ، وهو زمن أحداث « الأرض » . والتبنى هنا بمعنى أننا نعيش ـ بالفعل ـ مشاكلهم ونقف معهم فى صراعهم الدامى ضد قوى الظلم الاجتماعى والسياسى الضاغطة عليهم ، والممثلة فى العمدة، والشيخ الشناوى ، والباشا .. وذلك على مستوى القرية، أما على مستوى القاهرة ، فقد كان الظلم الموجه الى أبناء القرية أشد عنفا لأنه ظلم يحتمى بقوة الحكومة وعساكرها..

ومن وجهة نظر الشرقاوى الواضحة المحددة ، نتعرف على قريته وهى ـ ككل قرى مصر فى تلك السنوات الطاحنة ـ « كانت تقذف ببعض فتياتها وفتيانها الى المدينة باحثين عن عمل .. ليعودوا صفرا مهزولين ، أكثر صفرة وهزالا مما ذهبوا ، ومعهم آخرون عاشوا فى المدينة طويلا ، ثم عادوا كلهم يفتشون فى طين الحقول عن طعام » .

والشرقاوى ـ هنا يؤكد حقائق عرفها بنفسه ، ومن هنا .. ومنذ البداية نتعرف على الشرقاوى الذى يختلف عن كل من سبقوه فى الكتابة عن قضية الفلاح .. فقد كانوا جميعا غرباء .. أما هو .. فبثقة وقوة يعلن :

« أنا أعرف قريتى تماما .. » وهذه جملة شامخة بقوتها ، تتكرر فى الصفحات الأولى ، وكأنها « المارش » التصويرى لافتتاحية أحداث رواية هى بلا جدال من أهم أعمال الأدب العربى .

« أنا أعرف قريتى تماما .. وأعرف أنها لم تكن تستطيع أن تقف عند شىء أو تشغل بشىء على الاطلاق فى تلك السنوات التى يلهبها صراع لا يهدأ من أجل القوت .

« وأنا أعرف أن القلائل الذين يملكون أرضا فى القرية كانوا وحدهم يشغلون بالضرائب المتجمدة على الأرض، وبالصراف الذى يطالبهم بمال الحكومة ، ويهددهم دائما بالحجز على الأطيان .

« على أن بقية الرجال والفتيـــان لم يكن يعنيهم أن تنتزع الأرض من أيدى الملاك أو تظل .. مادام كل واحد منهم يجب أن يبحث آخر الأمر عن حقل يعمل فيه طول النهـــار .. » .

الظروف السياسية

فى عام ١٩٣٤ ، كانت مصر تحكم بالحديد والنار على يدى « اسماعيل صدقى باشا » بعد أن ألغى الدستور لحساب الانجليز ، وكانت القاهرة تواجه طغيانه بمظاهرات العمال والطلبة التى لم تتوقف برغم سيل الرصـــاص المصوب اليهم من بنادق الانجليز الذين أطلقهم « صـــدقى باشا » ليحموا له سلطانه على رقاب الناس •

أما فى القرية •• فقد تساءل أحد الأطفال :

ـ « هو صدقى ده قد ايه ؟ •• يعنى هو اللى يغلب والا الواد عبد الهادى لو نزلوا لبعض لعب عصا ؟ •• »

ان صـــدقى هذا كائن عجيب يغلب مائة مثـل عبد الهـادى ، ولكن فى غير لعب العصا •• وانه يأكل خبزا كله من القمح وهو لا يعرف الذرة الذى يأكلونه فى القرية ، وهو يشرب الماء بالثلج من الحنفية لا من الزير •• !

•• ويسأل طفل آخر عن « هذا الدســتور الذى هتفوا بحياته مع الكبار وأوشكوا أن يقتلوا من أجله •• » بعد أن سجن الفلاحون وضربوا فى المركز من أجل الدستور •• الذى نقل من أجله ـ أيضا ـ الشيخ حسونة ناظر المدرسة الى بلد فى آخر الدنيا ، والذى أيضا ـ مرة أخرى ـ

فصل بسببه محمد أبو سويلم من مشيخة الخفر لأنه رفض أن يسوق الفلاحين لانتخاب مرشح حزب الشعب ، وكذلك الشيخ يوسف — بقال القرية — نزعت منه ملكية نصف فدان ... الخ .

« وشعرت أنهم في القرية يعرفون عن الدستور — بكثير من المرارة — أضعاف ما أعرف أنا برغم أنهم لم يشتركوا مثلي في مظاهرات القاهرة من أجل الدستور » .

هكذا يحدد الشرقاوى أبعاد الظروف السياسية التى ستتحرك فى اطارها أحداث ملحمته ، وهى ظروف انعكست على الظروف الاقتصادية للبلد ، وفى الحياة الاجتماعية أيضا ، مما جعلنا « نرى أن مصر بلغ فيها الظلم الاجتماعى حدا كبيرا ، وما أنا بحاجة الى أن أثير القارىء بوصف حالات الفقر وحالات الثراء التى نلاحظ جميعا ما بينها من تفاوت مؤلم .. فصاحب راس المال يستغل العامل ، والمالك يستغل الفلاح » .

« على حد تعبير د . محمد مندور : كتابات لم تنشر — ص ١٤٦ » .

والآن .. ما هو صدى قضية الفلاح .. فى الثلاثينات — عند الشرقاوى .. وما هى الصورة الجديدة للقضية فى « الأرض » ؟

ان الفـــلاح عند الشرقاوى رجل حقيقى ، بضعفه وقوته ، بحبه الرومانسى ، وآلامه المريرة ، وكل هذا يتمثل في شخصية عبد الهادى وهى شخصية تســتقطب كل مكونات الفلاح ، وكل عذاباته ، وتواجهها بارادة تملك حق « الفعل » ٠٠٠ ذلك كنه لانها تستمد ثباتها من الأرض، هذه الأرض الواسعة التى تمتد الى جواره ـ عبد الهادى تملؤه احساسا بالثبات والرسوخ والشرف ٠٠ (ص ٥٤) ٠

وعندما يأتى الحادث الأول ، وهو قرار وقف السواقى وانقاص مدة الرى للفلاحين من عشرة أيام الى خمسة لصالح أرض الباشا ، يتلقى عبد الهادى النبأ المؤلم وهو « الى جوار الأرض التى يملكها هو والتى ورثها عن أبيه ، وحمل الفأس الصغيرة عليها وهو طفل ٠٠ حتى اذا كبر عبد الهادى ومات أبوه كبرت الفأس معه ٠٠ » ص ٥٥ ٠

والأرض رفعت رأس عبد الهادى على الدوام ، ولم يفرط فيها يوما واحدا ٠ كذلك هى لم تفرط فيه ٠ وكل أرضه ، فدان ٠٠ فدان واحد ٠٠ لكن : « كم من الناس في القرية يملك فدانا مثله ؟ » ان العمدة نفسه لا يملك أكثر منــــه ، وقد أكملت له عائلته زمام العمدية بعقود صورية ٠٠

اذن ٠٠ فقد تلقى عبد الهادى وقف السواقى ،وحظر الرى « وأقدامه مغروسة فى أرضه » ٠

وكل هذا ينبىء باستعداده للمقاومة بل وبعنف هذه المقاومة ...

ومرة أخرى أكثرت من اقتباس النصـــوص عن « الأرض » لكى نتعرف أكثر على عبد الهادى وحده ـ كرمز لكل الفلاحين ـ بل وعلى الشرقاوى نفسه ، الذى قال ـ بصوت مدو ـ انه يكتب عن الأرض والفلاح بفكر ثورى ، وموقف اجتماعى تقدمى أيضا .

●

وفى صفحة ٦٤ من القصة ، يضعنا الشرقاوى أمام بداية الصدام بين الفلاح والسلطة ، دفاعا عن الأرض . وذلك عندما يأتى رجال هندسة الرى لوقف السواقى ، ويظن عبدالهادى أن الأمر ليس مشكلة وأنه سيدير الساقية ـ من جديد ـ كالعادة مقابل عشرين قرشا يرشو بهـــا مساعد المهندس ، لكن الأمر هذه المرة يختلف ، فالمهندس يصرخ : « اسمع يا جدع انت وهو .. أنا عارف لماضة الفلاحين .. وشغلهم ولؤمهم .. » ويهدد بكسر السواقى جميعها ... ولكن عبد الهادى يعلو صوته :

ـ ايه ؟ .. تكسروا سواقى الجسر ؟ ليه يعنى ؟ .. دا لسه قدامنا خمسة أيام رى يا جدع ؟

لكن المشكلة ـ على ما يبدو ـ لن تحل بالكلام .. فقد وصلت العمدة اشارة بأن اليوم ـ برغم بقاء خمسة أيام ـ هو آخر موعد للسواقي تدور فيه .. ويكتشف

عبد الهادى أن العمدة يجدد تآمره على القرية ــ تماما مثلما فعل أيام الانتخابات • فهو لم يبلغهم بهذه الإشارة ، لكى يضبط الفلاحون متلبسين بمخالفتها ويساقوا الى سجن المركز • ولذلك يزداد رفضه :

ــ عمدة ؟ •• عمدة ايه يا جدع •• أنا حدورها من بكره •• وخليه يبجى يحوشنى و نا أرميه لك فى البير •• أضربه بالعيار •

ولما يخيفه المهندس بأن هــذه هى أوامر الحكومة ، يزداد رفضا :

ــ حكومة •• ! سلامات يا حكومة ؟ •• تعطشوا لنا الأرض وتقولوا الحكومة •

وعبد الهادى يرفض التسليم ، ويتساءل : « مين اللى ياخد منا خمسة أيام من العشرة بتوعنا ؟ المخروبة أرض الباشا •• ياسلام يا سلام •• ؟ تقفلوا الترعة وتبطلوا السواقى ؟ •• والنبى لتجرى دماها قبل مياها •• وسع يا جدع هى الحكومة ما عندهاش شغلانه غير بلدنا ؟ ص ٦٧ ، ٦٨ •

المقــاومة

وتوسع الصفحات ــ بعد ذلك ــ صـــدرها لأشرف مقاومة بذلها الفلاح المصرى دفاعا عن قضيته • فقد خرجت القرية لتقطع السد الذى حجزت به الحكومة المياه عن أرضهم

ودارت كل السواقى ، لكن الخلاف يقع ويتشاجرون « على الرى » ·· بيد أنهم سرعان ما يفاجئون بحدث آجل واهم ، وهو قرار الحكومة بنزع أراضى الجسر كلها ليمتد عبرهـــا طريق زراعى يخدم مصالح الباشـــا · وبرغـــم أن أرض عبد الهادى على الترعة ، فانه يذكر أن الجميع كانوا خلفه فى مشكلة الرى ·· وهذه المرة يكون أمامهم أيضاً وهم ينتزعون « الحديد » الذى دقته الحكومة فى الأراضى لشق الزراعية ، بعد أن فشلت كل المحاولات السلمية المتاحة لهم كعريضة تحمل شكواهم الى الحكومة ، حملها «محمد افندى» وذهب الى القاهرة ـ بعد أن ثبت وقوف العمـــــدة وشيخ الجامع ضدهم ·

ويلجأ الفلاحون الى العنف ، حيث لابديل غيره أمامهم·

ولكن العنف ينتهى بهم الى سجن المركز ، حيث أجبروا على تجرع بول الأحصنة ···

●

عندما يفرج المأمور عن عبد الهادى وزملائه أهل القرية بمناسبة زيارة قام بها بعض وزراء «حزب الشعب» للمركز يعود الرجال لانتزاع حديد الطريق من أرضهم ، لأنهم كانوا كلهم يعرفون أن الجسر هو الطريق الذى يجب أن تهتم به الحكومة ، وما عليها الا أن تصلحه فيصبح واسعا كطرقات المركز ، ولا حاجة بعد الى انتزاع الأرض من أيدى الـــذين يعيشون عليها ·· » ص ٢٠٦ ·

على أن الأمر خطير • فالباشا لا يسرع فى اتمام قصره الجديد الا اذا كان واثقا من أن الحكومة التى ستشق له الطريق الزراعى باقية وخالدة ، لكن الفلاحين يعرفون ـ أيضا بالتجربة ـ أن « الحكومة لا تسقط الا اذا قام الفلاحون ضدها كما قاموا ضد الانجليز سنة ١٩١٩ » ..

ولكن ••• هل ينعمون ـ هذه المرة ـ بنجاحهم فى انتزاع حديد الطريق من أرضهم ؟• ان العمدة ـ الذى خدم الحكومة فى الانتخابات وزور لها أصوات الأحياء والأموات فى القرية ، وجمع لها اشتراكات اجبارية فى جريدة حزب الشعب ـ هذا العمدة صحيح انه مات ، لكن المأمور لم يمت .. فقد جاء الى القرية لينذر :

« طيب يا بلد » ! و « وأنا حا أعرف أربى البلد دى وأخليها عبرة » •

وينفذ المأمور وعيده : فيعلن حظر التجول فى القرية •• ويقبل عساكر الهجانة بالكرابيج •• « ومروا على الزرائب فى الحقول على الجسور فانهالوا ضربا على الفلاحين ، أمروهم بالرجوع الى الدور ، ثم نزلوا الى القرية يسوقون أمامهم الرجال والأطفال والبهائم ، وأخذوا يضربون كل من يقابلهم فى طرقات القرية ويأمرون الناس أن يلزموا بيوتهم » (ص ٢٣٨) •

وفى الصباح كان الفلاحون يتحدثون عن حديد جديد أرسلته الحكومة للزراعية ، التى لابد أن تشق فى أرض الفلاحين لأن « الباشا » يريد ذلك •

هذه صورة موجزة للقصة الطويلة ، التى وقف فيهـا الشرقاوى موقفا صلبا الى جوار قضيـــة الفلاح • فهو لم يكتف برصد مشاهد الشقاء والتعاسة ، كما لم يبهره جمال الريف بشمسه وأشجاره وقنواته ، وانما اهتم فى الدرجة الأولى ، بالظلم الاجتماعى الواقع على الفلاحين وأخذ يحلله ويناقشه ، باحثا عن أسبابه ، جاعلا أبطال قصتـــه وهم أنفسهم أهل القرية ، يجابهون هذا الظـلم بارادة قوية ، ارادة تملك أن تفعل ــ لا تقول لا فقط ، وانما ترفع الفأس لتبطش بأولئك الذين تفننوا فى جعل مصر معتقلا لأهلهـا فى ظل ارهاب صدقى باشا •• ومن ورائه القصر والانجليز •

●

وبقصة الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى ، نصـــل الى نهاية مرحلة من مراحل قضية الفلاح فى القصة المصرية «×» وهى المرحلة التى سادتها اتجاهات الســخرية من الفلاح ومشكلته ، كما نجد فى كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » للشيخ يوسف الشربينى ، وقد امتدت هذه السخرية ، متخذة أساليب أكثر عصرية ، فى قصة «زينب» للدكتور هيكل ، أو مقنعة فى شكل ساخط عند الحكيم فى « يوميات نائب فى الأرياف » •• هذا من ناحية •

ومن ناحية أخرى ــ كما رأينا فى الفصول السابقة ــ

«×» تقع هــذه الدراسة فى ثلاثة اجزاء .. وهذا الكتاب هو الجزء الاول منها •

نجد اتجاه الاصلاح الاجتماعى قد جذب اليـــه الأدباء من « النديم » الى كتاب المدرسة الحديثة الذين تردد بعضهم بين السخرية من الفلاح تارة ، وبين التعاطف معه تارة أخرى٠٠ وان كان تعاطفهم لا يجدى ، حتى أقدم د٠ طه حســين ، بتبنيه للقضية ، على خطوة هامة هى مطالبته بالعدل الاجتماعى ٠٠٠ ومن هنا اتخذت القضية فى أوائل الأربعينيات مساراً جادا ، ليس نحو المطالبة بحلول عادلة لها وحسب ، بل نحو البحث عن حل عملى لقضية الفلاح .

ولقد كانت « الأرض للشرقاوى ، التى صدرت فى عام ١٩٥٤ ، خير مثال للتعبير عن ذلك الاتجاه الأخير ٠٠ فجاءت بحق ، انتصارا أدبياً مشرفاً لقضية الفلاح المصرى ٠٠ لأنها تميزت ـ ضمن ما تميزت به ـ عن كل القصص السابقة عليها ، بنظرة واقعية للقضية ، وهى واقعية لا تقف عنـد حدود التسجيل الفوتوغرافى لمـأساة الفلاح ، كما أنهـا لا تزيف هذه المـأساة بعرضها فى غـلالة شـفافة من الرومانسيات السلبية ، وانما هى تتعدى ـ برؤى كاتبها ٠ كل هذا ، الى واقعية ثورية ، تقف أمام حقيقة ما يحـدث للفلاح من عنت وظلم ، وتسلط على مقدرات حياته البسيطة ٠٠٠ ثم ـ بعد تحليل ذلك وتفسيره بالحدث الفنى والموقف النابع من طينة الأرض ومشكلاتها ـ تعانق محاولات الفلاح الدائبة للخلاص ، وهى محاولات بدأت بالطرق السلمية ، ممثلة فى محاولة ايصال شـكاة الفلاحين الى المسـئولين ليتركوهم يسقون زرعهم ، لكن شكواهم تتحول بالخديعة الى

عريضة بموافقتهم الاجماعية على شق الطريق الجديد ، الذى اراده الباشا ، فى قلب أراضيهم •• ومن ثم يجدون أن لا مفر من المجابهة بالعنف ، توسلا الى الخلاص من طغيان حكومة حزب الشعب ورجالاتها فى الريف •

ومن هنا أصبح لقصة « الأرض » طعم ثورى ، يختلف عن المحاولات السابقة لها ، صحيح أننا نجـــد فيها تاثرا بثورية عبد الله النديم ، وعناد طه حسين ، لكنها تبقى مع ذلك عملا مميزا باحتوائها كل أبعاد قضية الفلاح ، بتبن حقيقى ، أكد لنا أن الفلاح المصرى رجل حقيقى •• ولبس « عبداً يأنف الخنوع » وأن مقاومته يمكن أن تعيد للأذهان انتصارات رفاقه الفلاحين فى حادث دنشـــواى ، وحوادث ثورة ١٩١٩ وما قبلهما وما بعدهمـــا ، من أمجاد حقيقية للفلاحين ، بناة الحضارة المصرية العريقة بكل ماتزخر به من قيم انسانية ، ستظل برغم كل الظروف ، منهـــلا خصبا للبشرية •

فهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
الفصل الأول :	
شيال الطين	١٣
الفصل الثانى :	
النظرة الاصلاحية	٢٣
الفصل الثالث :	
مناظر وأخلاق ريفية	٣٥
الفصل الرابع :	
تعاطف الغرباء	٤٧
الفصل الخامس :	
يوميات نائب فى الأرياف	٥٩
الفصل السادس :	
المعذبون فى الأرض	٧١
الفصل السابع :	
الأرض .. والمجابهة	٨١

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١٦/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ /٧١٠٥٨ تلغرافياً : ياشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات الهيئة للتوزيع في ج . ع . م .

القـــــاهرة

٣٦ شارع شريف ت : ٤٠٠١٢ — ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابي ت : ٤٦٣٨٣ — ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان ت . ٢١١٨٧ — الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧

الإسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ — الجيزة : ١٠ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلي ٢٦٠٥ — المنيا : شارع ابن خصيب ت: ٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ — أسيوط : شارع الجمهورية ت: ٢٠٣٢
المحلة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ — أسوان : السوق السياحي ت: ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدي وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغداد – ميدان التحرير – عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيا : محمود عارف الشرويدي – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكي – الأحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
في خدمة القارئ العربي



حسن محسب

- من مواليد سنة ١٩٣٨
- يعمل محررا أدبيا لمجلة الاذاعة والتليفزيون .
- يكتب القصة منذ عام ١٩٥٧ ..
- نشرت قصصه فى معظم المجلات الادبية فى مصر ولبنان .
- مؤلفاته :
  - لحظة حب (مجموعة قصص)
  - الكوخ (مجموعة قصص)
  - التفتيش (مجموعة قصص)
  - حلم الليل والنهار (رواية)
- له عدة كتابات فى الادب والفن والثقافة

يصدر ق...

القانون والقيم...

دراسة فى الفلس...

١٥...

الثمن...

المكتبة الثقافية

(جامعة حرة)

- خلاصة الفكر القومى والإنسانى
- تجعل المعرفة متعة تعمق الشعور بالحياة ، وسلاحًا يساعد على الإنتصار فى معركة الحياة

يشرف على السلسلة

الدكتور شكرى محمد عياد